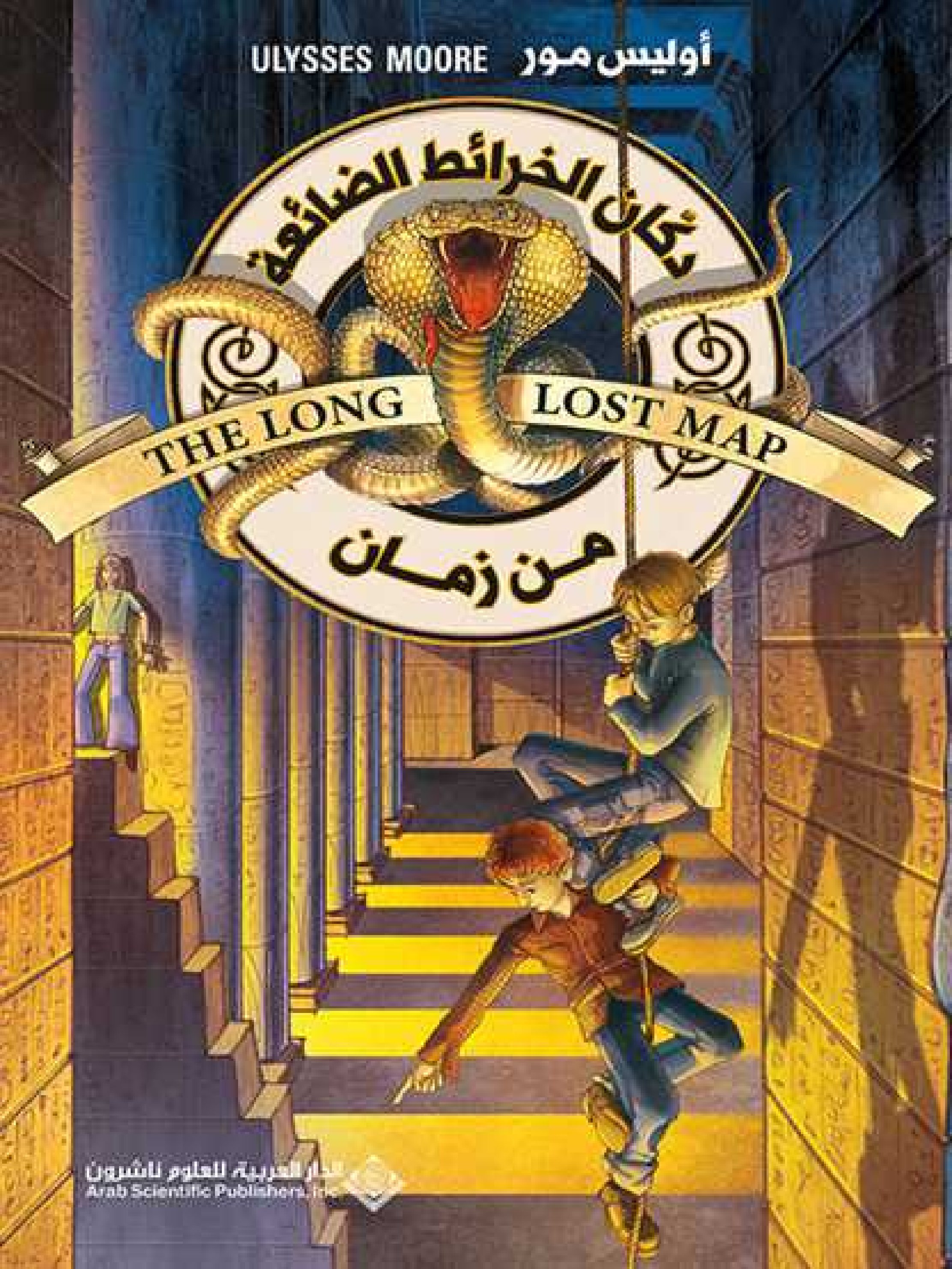

ULYSSES MOORE أوليس مور
دكان الخرائط الضائعة
THE LONG LOST MAP
من زمان
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

دكّان الخرائط
الضائعة من زمان

Text by Ulysses Moore
Original Cover and Illustrations by Iacopo Bruno

Original title: La Bottega delle Mappe Dimenticate
Translation by: Zeina Idrees

أولـيس مــور
Ulysses Moore

دكّان الخرائط الضائعة من زمان

La Bottega delle Mappe Dimenticate

ترجمة: زينة إدريس



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة
La Bottega delle Mappe Dimenticate
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
© Atlantyca S.p.A.
Via Leopardi 8, 20123 Milano, Italia

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Arabic Copyright © 2020 by **Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L**

الطبعة الأولى: 1441 هـ - 2020 م

ردمك 978-614-01-3046-3

«تم إصدار هذا الكتاب بدعم من برنامج أضواء على حقوق النشر لمعرض أبوظبي الدولي للكتاب دون تحمل المعرض أي مسؤولية عن محتوى الكتاب»

معرض أبوظبي الدولي للكتاب
ABU DHABI INTERNATIONAL BOOK FAIR

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 1102-2050 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

ملاحظة للقارئ

تمكّن مستشــارنا أخيراً من ترجمة دفتر اليوميّات الثاني ليوليسيس مور عن طريق فكّ شفرته الغامضة. لكن لا يزال الغموض يكتنف خليج كيلمور وسكّانه... لذلك قرّر البقاء فترة أطول في كورنوال لمواصلــة التحقيق. قبل الخوض في هذه المغامرة الجديدة، وإذا كنت مهتمّاً بمعرفة ما حدث حتّى الآن، فما عليك سوى إلقاء نظرة على نهاية الكتاب...

هيئة التحرير في باتيلو آ فابوري *Battello a Vapore*

نص الرسالة الإلكترونية

من: بياردومينيكو باكالاريو
التاريخ: 1 مارس 2005، الساعة 11:23 قبل منتصف الليل
إلى: قسم التحرير في باتيلو آ. فابوري
الموضوع: **ترجمة دفتر اليوميّات الثاني**

أصدقائي الأعزّاء،
أنا أكتب إليكم من مقهى إنترنت في ســانت آيفز، وهي بلدة صغيرة ســاحرة في كورنوال. الحياة رائعة هنا! وإذا كنتم لا تمانعون، فأنا أرغب في المكوث بضعة أسابيع أخرى. لقد تمكّنت من ترجمة دفتر اليوميّات الثاني، ولا بدّ لي من القول إنّه كان مليئاً بالمفاجآت! فقد اكتشفت فيه عالماً من الأسرار... لكنّني لا أريد أن أفسد عليكم القصّة، ولذلك سأترككم تقرأون وتكتشفون كلّ شيء بأنفسكم.

كنــت أعمل ليل نهار، حتّى اســتبدّ بي التعب. وعندما قــرّرت أخيراً مغادرة غرفتي، أبهر ضوء الشمس عينيّ. كان صاحبا الفندق الصغير هما اللذان أقنعاني بالخروج لتنفّس الهواء النقيّ. (ولولاهما، لبقيت محبوســاً في غرفتي، مع القلم والورق، أحلّ طلاســم نصوص يوليســيس مور غير المفهومة). إنّهما شــخصان لطيفان للغاية. أخبرتهما بما كنت أفعله... وهما يعاملانني الآن كواحد من أفراد الأسرة.

كلّ صباح، نتناول طعام الإفطار معاً (هل ســبق لكم أن تذوّقتم كعك الســكونز؟ إنّه لذيذ جــدّاً مع القهــوة بالحليب!) بعد ذلك، أجلس إلى إحدى الطاولات، وأفتح دفتراً جديداً، ثمّ أغوص فيه بحثاً عن رســومات وصور فوتوغرافية قد تســاعدني. والممتع أنّهما يطلبان منّي دائماً في نهاية اليوم أن أقرأ لهما ما ترجمته، ونتناقش فيه.

هل ترغبون في سماع خبر غريب؟ لقد سبق للسيّدة في الفندق أن سمعت بخليج كيلمور، لكن لم يستطع أيّ منهما أن يخبرني بالضبط كيف أصل إلى هناك. مع ذلك، لا أعتقد أنّ لديّ متّسعاً من الوقت للذهاب في جولة سياحية على أيّ حال!

قبـل أن أودّعكـم، ثمّـة بعض الأمور التي يجب أن أخبركم بهـا. فبعد أن أجريتُ بعض الأبحاث، تمكّنت من تعقّب امرأة تدعى أوبليفيا نيوتن، وهي سـيّدة أعمال ناجحة تعمل في مجال العقارات والسياحة والعطلات. هل يمكن أن تكون المرأة نفسها المذكورة في هذه الدفاتر؟

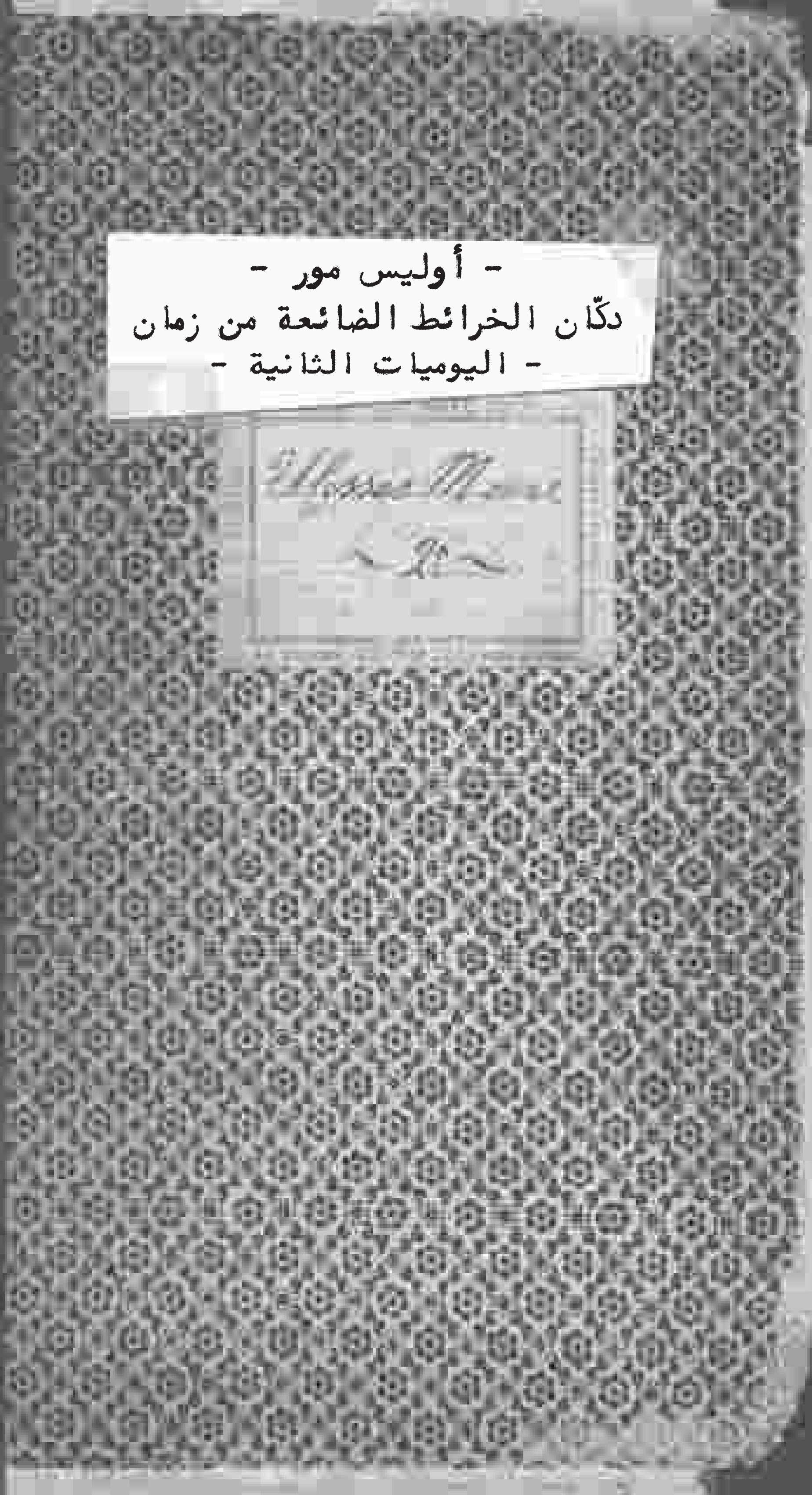
ثمّة أيضاً عدد لا يُحصى من الأسـر التي تحمل اسـم كوفننت والمدرجة في دليل هاتف لندن. ولديّ رغبة جامحة في الاتّصال بكلّ منهم!

من ناحية أخرى، لم يتمّ ذكر خليج كيلمور في أيّ دليل. وهذا أقلّه يثير اسـتغرابي. أودّ الذهاب للسؤال عن مبنى بلدية سانت آيفز، أو البحث عن إحدى البطاقات البريدية التي توضح الطرق المؤدّية إلى هناك، أو عن خارطة سياحية مفصّلة تساعدني في الوصول إلى تلك البلدة الصغيرة الغريبة.

الوقت ينفد، وعليّ الذهاب.
سأتّصل بكم مرّة أخرى قريباً،

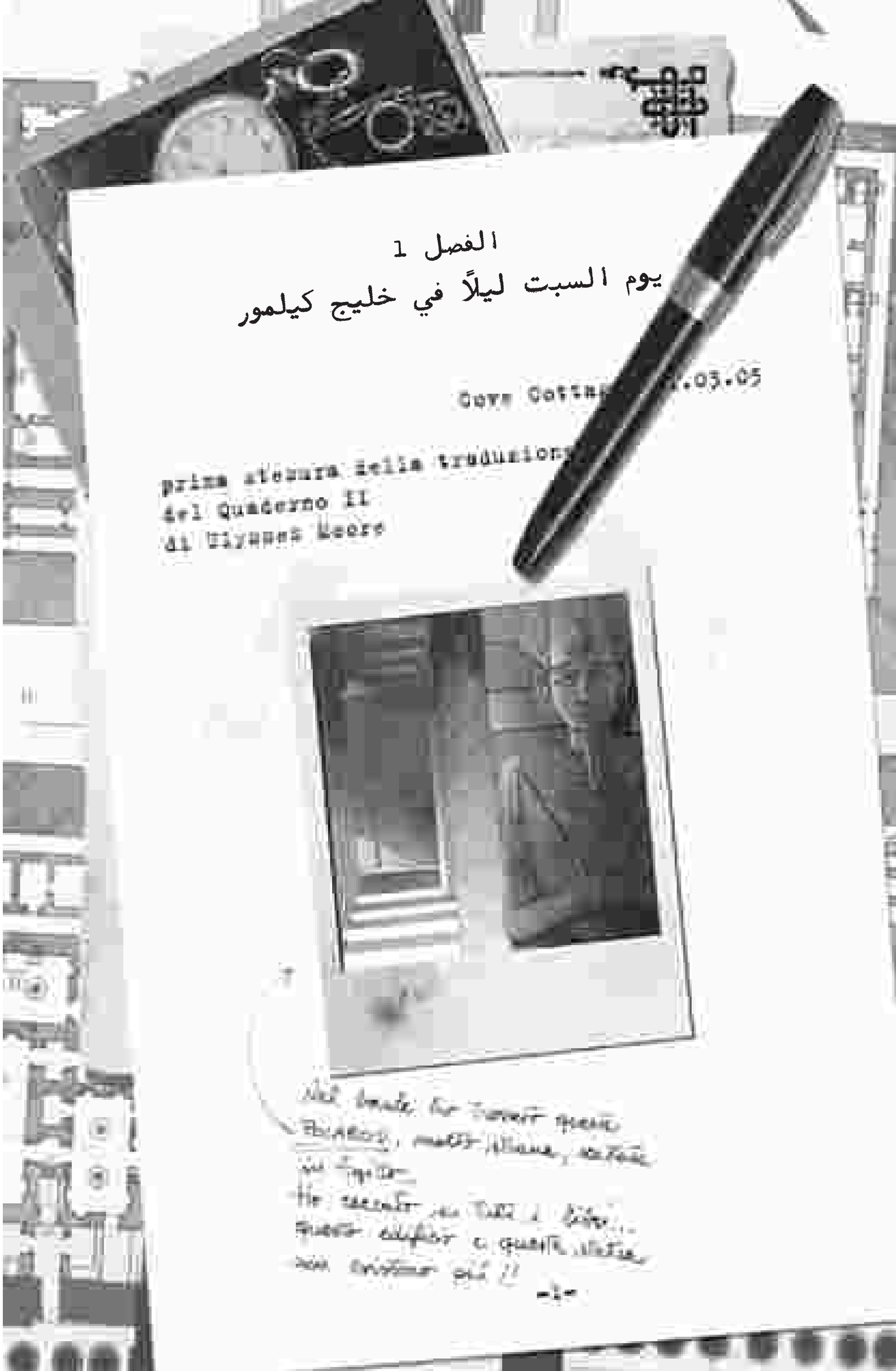
بييردومينيكو

- أوليس مور -
دكّان الخرائط الضائعة من زمان
- اليوميات الثانية -



الفصل 1

يوم السبت ليلاً في خليج كيلمور



كان المطر يتساقط من سماء مظلمة مثل نفق أسود. بدا البرج الصغير لفيلّا آرغو، الواقعة فوق الجرف، وكأنّه ينبض بفعل هبّات الرياح العنيفة. تمايلت الأشــجار في الحديقة إلى الأمام والخلف كالأعشــاب، وتدافعت الأمواج العاتية وهي ترغي وتزبد لتتحطّم على الصخور.

للمرّة الألف، تأكّد نيستور البستاني من إغلاق جميع النوافذ. مشى وهو يعرج من غرفة إلى أخرى، يشقّ طريقه في الظلام وسط مفروشــات المنزل الغريبة. ولأنّه كان يعرف المكان كصفحة يده، فقد تجوّل بسهولة بين الأدراج البارزة، وطاولات القهوة، والتماثيل الهندية والأفريقية، وخفض رأسه قبل أن يمرّ تحت الثريّا الفينيسية القديمــة فــي غرفة الجلوس. تعود معرفتــه الكاملة لكلّ ركن من أركان المنزل إلى سنوات خدمته العديدة لمالكي هذا المنزل بكلّ إخلاص.

مــرّ من أمام الســلّم، ووصل إلــى المدخل ذي الأعمدة، ثمّ توقّــف أمام الأبــواب الزجاجية الكبيرة لينظر إلــى الحديقة التي غمرتها مياه الأمطار. استند إلى قاعدة تمثال لامرأة تقوم بإصلاح شبكة صيد. تحت وميض البرق الساطع المتسلّل من خلال النوافذ، بدت كأنّها حيّة تقريباً.

فرك نيستور يديه بخفّة، ثمّ صعد الدرج، ومرّ من تحت صور أصحاب المنزل السابقين، ثمّ دخل غرفة البرج. ألقى نظرة سريعة

علــى اليوميّات ومجموعة نماذج الســفن، ثمّ عاد وهو يعرج إلى الطابق الأرضي، ومرّ من تحت القنطرة المؤدّية إلى الغرفة الحجرية ثمّ ضغط على زرّ النور.

وجد على الأرض أقلاماً وأوراقاً مبعثرة، إذ كان الأطفال قد أمضوا بعد الظهيرة في حلّ لغز الأقفال الأربعة.

بومة. قنفذ. فيل. سمندل.

ثمّ تمكّنوا من فتحها...

حدّق نيســتور إلى الباب الأســود. كان خشبه القديم مكسوّاً بالحــروق والخدوش. والآن، تمّ إغلاقــه مجدّداً. لقد أُقفل تماماً بحيث لم يعد من الممكن الدخول من هذا الجانب.

همس البســتاني: «فلنأمل أن يكونــوا بخير...»، وضغط بيده علــى الخشــب البارد للباب الســحري. ألقى نظرة على ســاعته الأوتوماتيكيــة، وكانت هديّة من صديقه الســاعاتي القديم. كانت العقارب الطويلة الرفيعة تتحرّك ببطء. تمتم وهو يضغط على أسنانه بعصبية: «كان يجب أن يعودوا في هذه الساعة...».

الفصل 2

- خلف الباب السحري -



قال جايسون وهو يبعد شعره المبلّل عن عينيه: «ثمّة ممرّ».

أضافت أخته: «وبصيصٌ من الضوء أيضاً».

وقف ريك خلف التوأمين، وأعاد إلى جيبه قطع الشمع التي كان لا يزال يحملها. «يبدو الجوّ أكثر دفئاً هنا بعض الشيء...».

مشـــوا بضع خطوات عبر الممـــرّ، وكانوا لا يزالون يرتجفون بالملابس التي عثروا عليها في الصندوق الخلفي على متن السفينة: بناطيل وقمصان أكبر بكثير من مقاسهم، وصنادل خشبية غير مريحة.

كان ريك على حقّ. فالممرّ أكثر دفئاً بكثير من مغارة الميتيس.

انحنى جايسون لتحسّس الأرض.

قال: «رمال! المكان مغطّى بالرمال».

مرّرت شـــقيقته يديها على الحجارة التي تكوّن الجدر. كانت من الصخر الداكن، ومختلفة عن صخور جرف سالتون.

ضحكت قائلة: «ربّما كنّا ندخل بركاناً...».

اســـتدار ريك لينظر إلى الباب الذي عبروه للتوّ. لم يكن من الممكـــن تمييزه إطلاقاً عن جـــدران الممرّ الحجرية. ولو لم يكن يعلم بوجوده هناك، ما كان ليعثر عليه أبداً.

حـــرّك الحبل الذي يحمله على كتفه، والذي أصرّ على جلبه معه، وواصل المسير.

صفر جايســـون بعصبية، ثمّ حذّر شـــقيقته قائلاً: «انتبهي أين تسيرين... لكي لا تسقطي في فخّ ما».

انعطفوا عند زاوية حادّة، ليجدوا أنفسهم في ممرّ آخر يحتوي على سلّم ضيّق وشديد الانحدار يؤدّي إلى الأعلى. أنار المكان ضوء يتسرّب من خلال نافذة مشبّكة في السقف.

ذهب جايسون مباشرة باتجاه بقعة الضوء الآتي من الأعلى وقال: «أخيراً! بعض من أشعّة الشمس!».

هزّ ريك رأسه بحيرة. «لكن هذا غير ممكن! فنحن لم نُمض الليل بكامله داخل الكهف».

في تلك اللحظة، أدركت جوليا أنّ ساعتها متوقّفة. قالت: «ربّما أشرقت الشمس للتوّ».

وقف ريك بجانب جايسون في بقعة الضوء. «من هنا، يبدو لي أنّنا أقرب إلى الظهيرة. لا بدّ من ذلك، لأنّ الضوء يسقط من هذه الزاوية من خلال فتحة في مستوى الأرض. لا أصدّق ذلك... لا يمكن أن يكون قد مرّ كلّ هذا الوقت!».

قال جايسون وهو يفرك بلطف خدوش صدره: «على الأقلّ، هذا يفسّر سبب الإنهاك الذي أشعر به...».

قاطعتهما جوليا التي أتت إليهما قائلة: «هل يملك أيّ منكما فكرة عن مكاننا؟».

استنتج ريك بأسلوبه العملي: «بتقديري... ما زلنا تحت جرف سالتون... على الجانب الآخر قليلاً من فيلّا آرغو».

اقترح عليهما جايسون وهو يبدأ بصعود الدرج: «أعتقد أنّ كلّ

ما يتعيّن علينا فعله الآن هو معرفة الجواب على وجه اليقين».

توقّفـوا في منتصف الطريق. ففي تلك اللحظة، سـمعوا من خلال الشبك شخصين يقتربان وهما يتحدّثان.

«... شحنة من أجود أنواع البخور».

«وهل سبق أن أخذتها إلى السوق بالقرب من المصطبة؟».

«بطبيعة الحال، ولكن يكاد يكون من المستحيل التنقّل اليوم، مع كلّ هذه التدابير الأمنية!».

«الشكر للفرعون على زيارته!».

«بالتأكيـد! وسأشـكره مائة مـرّة إذا بقي في بيتـه في المرّة القادمة...».

عندما ابتعدت الأصوات، تبادل الأولاد نظرة ارتباك.

سألت جوليا: «هل سمعتما ما سمعت يا شباب؟».

أجاب جايسون وهو يستأنف صعود الدرج: «بكلّ وضوح».

«وحتّى كلمة... فرعون؟».

«ربّما كان يعني فارو، وهي لعبة ورق إسبانية».

«وأنت يا ريك؟».

كان الصبيّ ذو الشعر الأحمر قد فتح قاموس اللغات المنسيّة وبـدأ يتصفّحـه. «أعطني ثانية واحدة يا جوليا، أنا أبحث عن كلمة مصطبة».

عند أعلى الدرج، توقّف جايسون أمام جدار من الطوب سدّ طريقهم.

سـألته أخته وهي تصعد إلى جانبه: «جايسـون، هل تعرف ما هـي المصطبـة؟». ثمّ رأت الجدار وقالت: «لا تقل لي إنّنا وصلنا إلى طريق مسدود!».

أجاب جايسون، وهو يمرّر عقد أصابعه على أحجار الطوب: «لقـد وصلنا إلى طريق مسـدود، لكنّنـي لا أعتقد أنّ هذا الجدار سيعيقنا لفترة طويلة. فهو ليس صلباً، إنّه جدار مزيّف».

بدأ ريك يقرأ: «مصطبة، قبر مصري مقدّس على شـكل هرم مقطـوع. قد يتمّ تزيين الداخل بلوحات جدارية أو نقوش. أمّا من الخـارج، فيتـمّ إخفاء مدخل حجرة الدفن من أجل إبعاد لصوص القبور...». وأخذ صوته يخفت تدريجيّاً.

حملقت جوليا بعينيها دهشـة. «قبـر مصري مقدّس؟ حجرة دفن؟ لصوص قبور؟»، ثمّ التفتت بغضب إلى أخيها وصاحت به. «جايسون!».

أغلـق ريـك قاموس اللغات المنسـيّة. «هل أنـا في حلم أم ماذا...».

صاحت جوليا مجدّداً: «جايسون! هل تخفي عنّا شيئاً».

في الواقع، لم يكن جايسـون أقلّ منهما دهشـة. لكن، تماماً كما خمّنت أخته، كان في أعماقه يطير فرحاً.

قــال وهو يســتند إلى جدار الطوب بحماســة: «إذاً... هكذا تسير الأمور حقّاً...»، ثمّ تذكّر أحلام اليقظة التي راودته على متن ميتيس، عندما رفضت السفينة أن تتزحزح من مكانها، وكيف تمكّن أخيراً من جعلها تبحر، متمنّياً من كلّ قلبه السفر إلى... «مصر!!».

نظــر ريــك إلى صديقه، ومنه إلى جوليــا، وأخيراً إلى الممرّ الغريب الذي يحيط بهم. ثمّ هزّ رأســه قائلاً: «الأمر واضح. نحن لــم نعــد في خليج كيلمور. فمن المســتحيل أن يكون هذا خليج كيلمور».

توتّرت جوليا وســألته: «ماذا تقصــد بقولك هذا ليس خليج كيلمور؟».

أشار ريك إلى نافذة الشبك فوقهم وقال: «ألم تسمعي ما قاله الرجلان؟ بخور، مصطبة، فرعون...».

عضّ جايسون على شفته وكبت ابتسامة.

اســتدارت جوليا وأشارت إليه بيدها اليمنى قائلة: «جايسون، ستخبرنا حالاً...».

لكنّ لم يتسنّ لها الوقت لتنهي كلامها. ففي تلك اللحظة، بدأ شخص ما يطرق على الجانب الآخر من جدار الطوب.

قبل منتصف الليل بقليل، مع تزايد قوّة العاصفة، أُضيئت منارة خليـــج كيلمور. ظهر على أعلى البرج وهج برتقالي، مثل مصباح كهربائـــي عملاق حامٍ. بعد ذلـــك، وعقب عدّة محاولات، بدأت منارتان بيضاوان بالدوران في الظلام ببطء.

سقط الضوء على البحر ليضيع في البعيد، ثمّ شقّ طريقه فوق سطوح المباني، مثل عين واقية بيضاء وكبيرة.

نامت البلدة بسلام، تاركة نفسها تحت مراقبة الضوء الحارس.

مـــرّت ســـيّارة في الشـــوارع الخالية. كانـــت واحدة من تلك الســـيّارات التي يقودها رجال العصابات: ســـوداء فخمة ومســـرفة في التكنولوجيا. انزلقت مسّـــاحات الزجاج الأمامي المتطوّرة فوق الزجاج مثل زلّاجتين سريعتين تخترقان الجليد. لكن عندما وصلت السيّارة إلى أعلى تلّة، لم تستطع النوافذ السوداء أن تحجب ضوء المنارة الكاسح، الذي أضاء داخل السيّارة كما لو كانت في وضح النهار. أبهر الضوء السائق، فداس فجأة على الفرامل لإيقاف السيّارة.

ارتفع صوت نســـائي من المقعد الخلفي، وصاح بسلسلة من عبارات اللوم التي انتهت بأمر حازم: «لا تكرّر ذلك مجدّداً!».

تمتم السائق بإجابة مختصرة، ثمّ بدّل سرعة السيّارة وهو يهبط التلّ نحو وسط المدينة. مرّ بجانب الرصيف الصغير، مخلّفاً المنارة وراءه، ثمّ انعطف عبر الطريق الضيّقة المتعرّجة الثانية التي قادتهما إلى داخل المدينة.

قالت المرأة الجالسـة في الخلف بتذمّر: «هذه ليست الطريق الصحيحة».

أجاب السـائق وهو ينظر إليها مـن خلال المرآة: «لكنّ هذه الطريق أقصر».

عكسـت أظفار المرأة الطويلة، المطليّـة باللون الأرجواني، الضوء وهي ترمقه شزراً.

وصلت السـيّارة إلى سـاحة دائرية، ارتفع في وسطها تمثال فـارس مهيب. كانت مجموعـة من طيور النورس قد احتمت من المطر تحت بطن الحصان البرونزي.

قال السائق في نفسه مبتسماً: «أعتقد أنّ للفنّ هدفاً حقّاً».

سـلك منعطفاً على شـكل U وانطلق في طريق ضيّقة أوسع بقليل من السيّارة نفسها، اصطفّت على جانبيها منازل قديمة ذات سـطوح جميلة. كانت مياه الأمطار تتدفّق كالشـلّالات من أنابيب التصريف.

قال السائق وهو يطلّ برأسه من النافذة: «ها قد وصلنا».

قبل أن تتمّ مسّـاحات الزجـاج الأمامي حركة كاملة، أوقف السيّارة بجانب منزل منخفض من طابقين ذي شرفة مليئة بالزهور، ونافذة جميلة، وسقف مائل.

قالت الراكبة بصوت رخيم: «ممتاز». رشّـت كمّية كبيرة من العطر، ثمّ فتحت باب السيّارة بنفسها. «هيا بنا نذهب!».

«هل عليّ المجيء أنا أيضاً؟».

همســـت أوبليفيا نيوتن بغضب: «هل نســـيت ما هو عملك يا مانفريـــد؟»، ثمّ توجّهت إلى المنزل القديم من دون أن تتكبّد عناء إغلاق باب السيّارة وراءها.

الفصل 3

- الجدار -



تكرّر القرع على الباب مراراً. طرقة، طرقتان. طرقة، طرقتان.

همست جوليا: «فلنرجع...» لكنّ جايسون أشار لها بالتزام الصمت.

طرقة، طرقتان.

كانت الطَرَقات خفيفة، كما لو أنّ أحدهم يحاول التأكّد ممّا إذا كان الجدار موجوداً بالفعل.

سألت جوليا بصوت خافت: «لماذا يقرعون؟».

أجاب ريك: «لا شكّ أنّ أحدهم سمعنا ونحن نتحدّث، وهو يحاول الآن أن يقدّر مدى سماكة الجدار، تماماً مثلما فعل أخوك من قبل».

وضع جايسون أذنه على الجدار.

سألته أخته: «ماذا تسمع؟».

«لا أسمع سواك، لأنّك لا تكفّين عن الكلام!».

ثمّ طرق مرّتين على الحائط.

رمقته جوليا بانزعاج. «والآن ماذا تفعل؟».

«أردّ عليهم».

على مسافة من ورائهما، هزّ ريك رأسه قائلاً: «قد لا تكون هذه فكرة جيّدة، فأنا لا أعرف ما إذا كان ينبغي أن نكشف لأيّ شخص عن وجودنا هنا...».

تناهت من الجانب الآخر من الجدار طرقتان واضحتان، ثمّ

سُمعت طرقة ثانية أقوى، فردّ عليها جايسون بطرقة أقوى منها.

تمتمت شقيقته: «جايسون... ألم تسمع ما قاله ريك للتوّ؟».

«هسّ! إنّهم يفعلون شيئاً...».

سمع الأولاد بعض الضوضاء التي كان من الصعب تمييز ماهيّتها، تبعتها لحظة صمت، وأخيراً، صرير حادّ.

«هل سمعتما ذلك؟».

«أ-أجل».

«ما هذا؟».

«بدا مثل الحديد. كأنّه حديد يحتكّ بالحجر».

وقفوا هناك يصغون بصمت، لكن يبدو أنّ الشخص الغامض الموجود من الجانب الآخر قد توقّف. فجأة، انبعث غبار كثيف من تحت الجدار.

أدرك جايسون ما يجري. فقفز مبتعداً عن الجدار وصرخ بالآخرَين: «ابتعدا من هنا! اهربا!».

سُمع دويّ، ثمّ انبعثت سحابة ضخمة بيضاء في الهواء.

هبطت جوليا الدرج، وتجاوزت ريك مسرعة، ثمّ بدأت تجري وهي ما زالت مغمورة بسحابة الغبار. لم تنظر إلى الوراء، لكنّها سمعت جايسون يصرخ من خلفها: «اهربا! اهربا!».

شعرت أنّ ريك بدأ يركض هو الآخر.

ضاعفت من سرعتها وانعطفت عند الزاوية، ثمّ سمعت صوت

أحجار الطوب وهي تدور حول بعضها، وريك يقحّ ويكرّر: « اهربا! اهربا!».

وصلت جوليا إلى الباب الذي أتوا منه، وقد تخدّر عقلها بفعل الذعر، ثمّ فتحته ودخلت إلى الجانب الآخر.

وجدت نفسها تجري في الظلام الدامس، قبل أن تتعثّر بشيء وتفقد توازنها.

أخيراً، سقطت على الأرض، على سجّادة.

سجّادة؟

عندئذٍ، اسـتدارت لترى الباب السـحري وهو يغلق خلفها، مصحوبـاً بطقطقة وسـحابة من الغبار. واختفـت معه الضوضاء، وصرخات ريك وشقيقها، كما لو أنّها لم تكن موجودة بالأساس.

هبّت جوليا واقفة.

الباب السحري؟

أين هي؟

سجّادة، وطاولة صغيرة، وخزانة مدفوعة جانباً، وأريكة زرقاء، وعدد من الكراسي. في الخارج، كان المطر ينهمر على النوافذ.

تساءلت بصوت مرتفع: «فيلّا آرغو؟».

ثمّ رأت ظلّ رجل وصرخت.

صرخ نيسـتور هو الآخر، وطـارت الأوراق التي كان يقرأها في الهواء.

عندما هدأ، سألها البستاني: «جوليا؟ هل أنت بخير؟».

فتحت فمها، لكنّها وجدت نفسها عاجزة عن الإجابة. حدّقت إلى الباب السحري والغبار الذي رافقها إلى الداخل، ولم تفهم شيئاً.

واصل نيستور الحديث معها: «أين ريك وجايسون؟».

هزّت جوليا رأسها بحيرة. خلفها، كان الباب السحري مغلقاً، وكان سطحه مكسوّاً بالخدوش والحروق. بدت الأقفال الأربعة المُرتّبة على شكل ألماسة أشبه بوجه يسخر منها.

لم يكن لريك أيّ أثر، ولا لجايسون أيضاً. لقد عادت بمفرها.

هزّت رأسها مجدّداً، وأجابت: «لا أدري، لا أدري».

استيقظت الآنسة كليوباترا بيغلز، التي أمضت كلّ سنوات عمرها الخمس والستّين في خليج كيلمور، على طرقات على باب منزلها. بحثت بيدها عن حبل المصباح على منضدتها، وشدّته لإضاءة المصباح.

سألت أحد الهرّين النائمَين عند أسفل سريرها: «ماذا يحدث يا أنطوني؟ هل سمعت ذلك أنت أيضاً؟».

قفز أنطوني على حافّة النافذة، وأخذ يحدّق إلى الخارج. كان

ظهره متصلّباً وذيله ممدود بشكل مستقيم. أمّا الهرّ الثاني، فواصل غفوته كما لو أنّ شيئاً لم يحدث.

«أنا آسفة لإيقاظك يا قيصر، لكنّني أعتقد أنّ ثمّة شخصاً عند الباب».

فركت الآنسة بيغلز عينيها، وتناولت المنبّه القديم الموضوع على المنضدة أمام صورة عائلية. فتحت عينيها بالكاد ونظرت إليه، لتكتشف أنّ الساعة قد تجاوزت للتوّ منتصف الليل.

«من القادم في هذه الساعة؟».

أيّاً يكن القادم، فقد عاد يطرق الباب مجدّداً، وهذه المرّة بإصرار أكبر.

أجابت متذمّرة وهي تبحث عن شبشبها الصوفي أسفل السرير: «ها أنا قادمة! ها أنا قادمة!». وفي أثناء ذلك، داست على ذيل الهرّ الثالث الذي هبّ وتسلّق رأس السرير. «أنا آسفة يا ماركوس أوريليوس!».

سوّت شعرها المنكوش بيديها النحيلتين من دون أن تضيء أيّ مصباح آخر، ثمّ هبطت الدرج الخشبي إلى الطابق الأرضي، متجنّبة الدوس على القطط الأخرى.

قالت: «ابتعدوا يا أولاد! دعوني أمرّ!». أيقظ صوتها جميع القطط العشرين التي تقطن منزلها. «عليّ أن أجيب الطارق!».

انهمر المطر بغزارة على النوافذ وأصص النباتات على الشرفة.

من خلال زجاج الباب، تسلّل ضوء خفيف من مصباح الشارع، ولم يكشف سوى طيف الشخص الواقف عند الباب.

تذكّرت الآنسة بيغلز فجأة البرامج التلفزيونية العديدة التي شاهدت فيها أحداثاً مماثلة. لذا قبل أن تفتح الباب، علّقت جنزير الأمان بالقفل.

هتفت بدهشة عندما تعرّفت إلى الوجه الواقف أمامها: «آنسة نيوتن، أهذه أنت؟! ما الأمر؟».

قالت أوبليفيا نيوتن وهي تبتسم ببرود وتلفّ فراءها الأسود بإحكام حول جسدها: «هلّا فتحت الباب، آنسة بيغلز؟ فالمطر غزير هنا».

نزعت كليوباترا بيغلز السلسال وفتحت الباب، متيحة لضيفتها الدخول. علا وقع كعبَي أوبليفيا نيوتن العاليَين على أرضيّات الباركيه القديمة التي أخذت تصدر صريراً. وما إن رأتها القطط، حتّى تفرّقت لتختبئ في ظلال غرفة الجلوس، وهي ترتعش خوفاً.

«آنسة نيوتن، يؤسفني للغاية أن أستقبلك بهذه الملابس، لكنّني لم أكن أتوقّع مجيئك! المنزل غير مرتّب و...»، ثمّ استدارت وبدأت تغلق الباب، لكنّ يداً قوية أوقفته، وفتحته مجدّداً.

أضاء البرق وجه مانفريد القبيح، الذي وقف هناك عند الباب، مبتلّاً.

رفعت كليوباترا بيغلز يدها إلى صدرها، وقد أخافها مرآه.

خلفهـــا، أخرج مـــارك أنطوني وماركوس أوريليـــوس مخالبهما. «آنســـة نيوتن! هل هذا الرجل الواقف هنا أتى معك؟ ماذا... ماذا يحدث؟».

لم تتكّبد أوبليفيا عناء الردّ عليها، بل مشت بجرأة إلى الرواق المـــؤدّي من غرفـــة الجلوس إلى المطبخ، وتوقّفت أمام القبو، ثمّ بدأت تتحسّس الجدار.

تمتمـــت: «أليـــس في هذا المنزل مصابيـــح؟»، ثمّ أدركت ما يجري عند باب المنزل. «أوه، أجل آنسة بيغلز، هلّا تلطّفت بإدخال سائقي أيضاً؟».

اطمأنّـــت كليوباتـــرا بيغلز، وتراجعت خطوة إلى الوراء، قائلة لمانفريد: «ادخل من فضلك...».

ألقـــى مانفريد نظرة اشـــمئزاز على الهرّيـــن المتوتّرَين خلف الآنســـة بيغلز، ثمّ دخل. وقف هناك في وســـط الغرفة ومياه المطر تقطر منه، وتمتم قائلاً: «أنا أكره القطط».

وقفـــت أوبليفيـــا نيوتن عند باب القبـــو، ثمّ دفعت الفراء عن كتفيها وتركته يسقط على الأرض. كانت ترتدي تحته ملابس أشبه بملابس مضيفة مشاكســـة لبرنامج حواري تلفزيوني: صندل عالي الكعبَيـــن تلتفّ حباله حول قدميهـــا، وتنّورة طويلة وفضفاضة من الكتّان الأبيض المثبّتة حول خصرها بحزام من الحبال، مع قميص

ناعم مزركش بنقش أكفّ النمر وشال من الفراء. زيّنت عنقَها قلادةٌ دائرية رائعة مصنوعة من سلاسل الذهب.

أمـــام امرأة تحســـد على مظهرها كهذه، بدأت الآنســـة بيغلز تلقائيّاً بتسوية شعرها وثوب نومها الأزرق المزركش. «آنسة نيوتن، حلّتك...».

«مصباح!» أمرتها أوبليفيا بذلك بحدّة مضيفة: «أضيئي المصباح! لا أستطيع أن أرى شيئاً».

أضاءت كليوباترا بيغلز مصباح السقف، فأنار الطابق الأرضي بضوء خافت أخذ يومض بفعل العاصفة.

قالت أوبليفيا وقد رأت شـــيئاً على باب القبو: «أخيراً! أخيراً وجدته».

حاولـــت الآنســـة بيغلـــز أن تهدّئ مـــارك أنطوني وماركوس أوريليوس، اللذين وتّرهما هذا الاقتحام، وسألتها: «أنا آسفة، ولكن ماذا قلتِ للتوّ؟».

مـــرّرت أوبليفيـــا يدها على قفل الباب القديم، ثمّ انحنت للمّ بعـــض حبّات الرمل عن الأرض. قالـــت بلهجة متعالية زائفة: «لا شيء مهمّ يا عزيزتي... لماذا لا تعودين للنوم الآن؟».

عندئذ، مدّ مانفريد يده، وغطّى فم الآنسة بيغلز بمنديل مبلّل بالكلوروفورم.

جحظـــت عينا المرأة المســـنّة بفعل المفاجـــأة، لكنّ ذلك لم

يدم ســـوى لبضع ثوانٍ. بعد ذلك، انزلقت من بين ذراعي مانفريد وسقطت على الأرض، فتحوّمت حولها القطط بعصبيّة.

قالت أوبليفيا نيوتن بصوت كالهسيس: «أراك لاحقاً يا مانفريد. في هذه الأثناء، أنت تعرف ما عليك فعله».

أخرجت من جيب تنّورتها مفتاحاً صدئاً قبضته على شكل هرّ، وأدخلته في قفل باب القبو، ثمّ حاولت تحريكه.

خفق قلبها فرحاً عندما سمعته يطقطق.

الفصل 4
- الزوّار -



عندما بدأ الغبار يستقرّ أخيراً، كان أوّل ما رآه جايسون الوجه المخيف لكلب حجري يطلّ من خلال الطوب.

لم يســتغرق وقتاً طويلاً ليتعرّف إلى أنوبيس، الإله المصري القديم الذي يملك رأس ابن آوى. وهو تحديداً إله الموتى.

كان التمثال قد أحدث حفرة في الجدار وسقط على الجانب الآخر.

نادى وهو يقف على قدميه: «جوليا؟».

ابتعد عن التمثال وحاول أن يتعرّف إلى مكانه، لكنّ ســحابة الغبار كانت لا تزال كثيفة في الهواء. «ريك؟».

كان صديقه قد سقط على مسافة قصيرة منه، عند أسفل الدرج.

«هل أنت بخير؟».

«أجل، وأنت؟».

«لم تتحطّم عظامي بعد. أين جوليا؟».

أجاب ريك وهو يسعل: «لا أعرف. كانت أمامي مباشرة. أعتقد أنّها وصلت إلى الباب وعادت إلى الكهف. سأتحقّق...».

ناداه جايســون: «مهلاً!»، ثمّ أصغى بعناية. فقد ظنّ أنّه ســمع صوتاً خافتاً من الجانب الآخر. «ثمّة شخص ما هنا!».

مشى الصديقان بحذر نحو التمثال، وأطلّا برأسيهما من خلال الفجوة في جدار الطوب.

على الجانب الآخر، وتحت كومة من الأمفورات المحطّمة، استلقت فتاة وبدت بسنّهما تقريباً.

قالت الفتاة المجهولة: «النـ-النجدة!».

صرخ جايســـون وهو يعبر الفتحة: «يا إلهي، ريك! أعتقد أنّها بحاجة إلى المساعدة...».

ســـحب الولدان الفتاة من تحت الركام. كانت ترتدي ملابس لا شـــكّ أنّها كانت بيضاء قبل وقوع الحادث، وكان رأســـها حليقاً تماماً، باستثناء جديلة سوداء على جانب رأسها تتدلّى حتّى صدرها.

ساعدها ريك وجايسون، فوقفت على قدميها، ونفضت الغبار عن ملابسها، ثمّ تحقّقت ممّا إذا كانت تعرّضت لأيّ كسور.

أشارت وهي تقحّ: «يبدو أنّني تسبّبت بفوضى كبيرة!».

غير أنّ جايســـون وريك لم يســـمعاها. كانا يحدّقان بذهول إلـــى ما يحيط بهما. كانا في غرفة مكســـوّة بالغبار ومليئة بالأثاث الخشبي المصنوع بأشكال غريبة. كما كان ثمّة قدم ضخمة منحوتة في الحجر، وجذوع على شـــكل تماســـيح، وطاولات ذات أرجل تشـــبه مخالب الطيور، وعدد لا يحصى من الأمفورات المحطّمة المنتشرة على الأرض.

وقفـــت الفتاة ووضعت يديها على خصرها، ثمّ ضغطت على عينيها لتحاول أن ترى بوضوح ماذا يوجد خلف الفتحة في الجدار.

قال ريك في نفسه، «يبدو أنّها تعاني من قصر النظر».

سألت الفتاة: «من أين أتيتما؟».

فاحت من جســدها رائحة أزهار قويّة، وكانت بشرتها مغطّاة بعلامات طينية خلّفتها الأمفورات.

أجاب جايسون: «من الجانب الآخر من الجدار».

«وماذا يوجد هناك؟».

تبادل جايسون وريك نظرة تفاهم متبادل.

«أوه، لا شيء... لا شيء على الإطلاق، باستثناء الأشياء نفسها الموجودة هنا. وبالطبع، الكثير من الغبار...».

قالت الفتاة وهي تئنّ: «يا لها من فوضى! إذا اكتشــف أبي ما فعلت، فإنّ عقابي سيكونه وخيماً».

تنهّد جايسون قائلاً: «حالنا مثل حالك!».

عبس ريك قليلاً، لكنّه لم يقل شيئاً.

اســتندت الفتاة إلى الخلف بجانب تمثال أنوبيس وسألتهما: «ولماذا كنتما تطرقان على الجدار؟».

أجاب جايسون: «أوه... ليس لسبب معيّن. كنّا نتحدّث ثمّ... دقّ دقّ... وطرقنا على الجدار لنرى كم هو متين».

«لقد سمعتكما على الفور! فهذا الجدار رقيق مثل سيبا».

كرّر جايســون مــن ورائها وهو يتصلّب: «أجــل، رقيق مثل سيبا...».

خلفه، بدأ ريك يتصفّح بسرعة قاموس اللغات المنسيّة ثمّ همس في أذنه: «سيبا: نوع من المظلّات». ثمّ أضاف بصوت يشوبه القلق: «إنّها كلمة مصرية قديمة».

في تلك الأثناء، روت لهما الفتاة ما حدث: «كنت أبحث هنا عن أوستراكون مسلٍّ، ثمّ سمعت أصواتكما».

همس ريك بصوت خافت لكي لا يسمعه سوى جايسون: «أوستراكون: قطعة فخّار مكسورة تُستخدم لكتابة أقوال قصيرة أو لعنات». وبصوت أكثر قلقاً، أضاف: «كلمة يونانية قديمة».

تابعت تقول: «فمشيت نحوه لأقرع عليه قليلاً أنا نفسي... فقد اعتقدت أنّني كنت أتخيّل أصواتاً، ولكن عندما قرعتما مجدّداً، بحثت بين كلّ هذه الأغراض عن شيء ثقيل، ووجدت تمثال أنوبيس القديم هذا... أردت استخدام قاعدته لأضرب بها الجدار، ولكن... كما تريان، انهار كلّ شيء و... يا للهول!».

ابتسم جايسون بمرح.

تابعت الفتاة: «لم أقصد التسبّب بكلّ هذه الفوضى، لكنّني شعرت بفضول كبير. ظننت أنّني اكتشفت ممرّاً سرّياً... أو شيئاً من هذا القبيل».

قال ريك: «وبدلاً من ذلك، اكتشفتِنا نحن».

ضحكت الفتاة قائلة: «أجل، وما من ممرّات سرّية».

بينما كانت تتحدّث، نظر إليها جايسون بعناية وقرّر أن يجازف

بالوثوق بها.

سألها: «اسمعي، أنا أعرف أنّ هذا السؤال قد يبدو لك غريباً، ولكن... أين نحن بالضبط؟».

«نحن في مخازن بيت الزوّار».

قال ريك، مشيراً إلى الجانب الآخر من الفتحة: «حسناً... إذاً ما من ممرّات سـرّية بالفعل. لا يوجد على الجانب الآخر سـوى مخازن أخرى لـ... بيت الزوّار...».

أكّد جايسون مجارياً صديقه: «أ-أجل...».

«لكن ماذا كنتما تفعلان هنا؟».

«أوه... إممم... في الواقع... نحن... زائران، بطبيعة الحال!».

أشرق وجه الفتاة.

«حقّاً؟ هل تعني أنّكما أتيتما إلى هنا مع آخر أسطول؟».

هزّ جايسـون رأسه يميناً ويسـاراً بإرباك، ثمّ أومأ برأسه نحو الأسفل.

اختـار ريك تأكيد كلامها وقال: «هذا صحيح، مع آخر، آخر أسطول».

«يا له من خبر رائع! لم أكن أعرف أنّ ثمّة أولاداً بسنّي قادمون أيضاً. اعتقدت أنّهم سـيجلبون موظّفي المحكمة العجائز المملّين أنفسـهم. على أيّ حال، من الواضح أنّكما غريبان». وابتسـمت بمكر. «لقد فهمت ذلك على الفور. فأنتما ترتديان أغرب ملابس

رأيتها في حياتي، وتتكلّمان بلهجة غريبة لم أسمعها من قبل».

غيّــر ريك الموضوع قبل أن يتّخــذ الحديث منحنى خطيراً، واقترح عليها قائلاً: «ما رأيك لو حاولنا إصلاح هذا الجدار؟».

انهمــك الأولاد الثلاثة بالعمــل. وجدوا لوحاً طويلاً طرفه على شكل هلال، وبحسب ما قالت الفتاة، هو لوح سرير قديم ومهمل. فقاموا بجرّه عبر قطع الأمفورات المحطّمة ودفعوه على الحائط.

لحسن الحظّ، لم يزعجهم أيّ دخيل، ما يعني أنّ الكارثة مرّت من دون أن يلاحظها أحد.

كان جايسون قلقاً من غياب جوليا، لكنّه قرّر تأجيل الحديث عن ذلك مع ريك، على الأقلّ ما دامت الفتاة معهما.

قالــت عندما انتهوا من عملهــم: «ممتاز، عاد جديداً. وما لم يصمّم أحدهم على إزاحة كلّ شــيء جانباً، فمن المســتحيل أن يلاحــظ وجود فتحــة هنا. في الواقع، إذا أســرعنا بالخروج هذا المكان، فلن يوبّخنا أحد. هل أنتما موافقان؟».

عضّ جايسون على شفته وقرّر المماطلة.

«بالتأكيد. اذهبي أنت، ونحن... سنرتّب أمورنا ونلحق بك...».

ما إن خرجت الفتاة من الغرفة، حتّى جمع ريك كلّ أشيائهما في حزمة: قاموس اللغات المنسيّة، ومذكّرات يوليسيس مور، وقطع الشمع، وبعض عيدان الكبريت، والحبل الذي فضلّ إحضاره معه.

همس جايسون في أذن صديقه، وحرص على ألّا يسمعه أحد آخر: «ريك، ما سبب اختفاء جوليا برأيك؟».

«لا أدري. لكنّنــا أقفلنا عليهــا وباتت من الجانب الآخر من الجــدار، والآن إذا غادرنــا هذا المكان... أيّــاً يكن... فقد تكون مجازفة كبيرة».

«همـــم... بالإضافة إلى ذلــك، أنت رأيت جوليا تفتح الباب مجدّداً... كلّا، لا أعتقد أنّ شــقيقتي في خطر. ببســاطة، لا أعتقد أنّ باستطاعتها العودة إلى هنا...».

«ما الذي يجعلك واثقاً من ذلك؟».

«أنا شــقيقها، يمكنني الشــعور بذلك. فلنترك لها ملاحظة». وأشــار إلى قطع الأمفورات المحطّمة على الأرض. «فلنكتب لها رسالة على الجدار».

«لكنّنا أغلقنا عليها الطريق الوحيدة المؤدّية إلى هذا المكان».

أطلّــت الفتاة المصريــة إلى الغرفة. «إذاً؟ هل أنتما قادمان أم لا؟».

أجاب جايسون مجفلاً: «أوه بلى، بالطبع!». هكذا مشى نحوها مكرهاً، وألقى نظرة ذات معنى على ريك.

تنــاول الصبيّ ذو الشــعر الأحمر قبضــة أمفورة عن الأرض وأزاح جانباً اللوح الخشبي الذي يغطّي فتحة الجدار.

ما إن خرج جايسون مع الفتاة، حتّى كتب بأحرف كبيرة:

لا تتحرّكي
سنعود قريباً.

ثمّ أضاف:

ملاحظة: أعتقد أنّنا حقّاً في مصر!

في فيلّا آرغو، أقنع نيستور جوليا بالجلوس على الأريكة في الغرفـــة الحجريـــة. كانت الفتاة لا تزال في حالة صدمة بســـبب ما مرّت به. فقد حدث كلّ شـــيء بســـرعة، ولم تدرك على الفور أنّها كانت الوحيدة التي عبرت الباب السحري.

لماذا هربَت؟ في المكان الذي كانا فيه، وقع ما يشبه...

« قلتِ انفجار؟» سألها نيستور بصبر.

وضعت جوليا يديها على رأسها مجيبة: «أجل... صادفنا سلّماً ينتهي عند جدار. قال جايسون إنّه جدار مزيّف. ويبدو أنّه كان ثمّة شخص ما وراءه... شخص يطرق عليه... ردّ عليه جايسون بطرقات

أخرى، وعندئذٍ... عندئذٍ ومثل الانفجار... انبعثت سحابة غبار كبيرة. صاح جايســون طالباً منّي أن أهــرب، فهربت. رحت أجري طوال الطريق إلى الباب، وفتحته و... ها أنا هنا، على المقلب الآخر».

لاحظت جوليا أنّها ما زالت تحمل في جيبها المفاتيح الأربعة التي استخدموها لفتح الباب السحري. فوضعتها على طاولة القهوة أمامها، ويداها ترتعشان بخفّة.

تمتم البســتاني وهو يروح ويجــيء بعصبيّة في الغرفة: «هذا غريب».

فجــأة قالت جوليا وهي تنظر إلى المفاتيح الأربعة: «مهلاً... ما هو الغريب؟».

لوّح نيستور بيده وقال: «ما حدث لك».

نهضــت جوليــا وقد بدأت تفهم فجأة. «أنت تعلم! أنت تعلم ما يوجد وراء هذا الباب!».

رفع نيستور أحد حاجبيه باستغراب، وحاول تغيير الموضوع. «هل ترغبين ببعض الشاي؟».

«كلّا! أجبنــي، مــا هو الغريب؟ هل تعــرف كيف يعمل هذا الباب؟ هل كنّا حقّاً في مصر، كما اعتقد جايســون؟ ولماذا انتهى بي الأمر هنا؟».

«ســأذهب لإعداد بعض الشاي الساخن. أنا واثق أنّه سيفيدك كثيراً». أعلن نيستور ذلك، واختفى بسرعة في الغرفة المجاورة.

«إلى أين تذهب؟ نيســتور! نيســتور! لا أريد كوباً سخيفاً من الشــاي! أريد تفســيراً!». ثمّ ذهبت إلى الباب الســحري وحاولت فتحه، لكنّه ظلّ مقفلاً تماماً.

قال لها نيســتور من الممرّ المؤدّي إلى المطبخ: «لا تحاولي عبثاً، لن يُفتح».

شــعرت جوليا بموجة غضب تجتاحها. عادت إلى الطاولة، وتناولــت المفاتيح الأربعــة بغضب، ثمّ أدخلتها واحداً تلو الآخر في الأقفال بالترتيب الصحيح.

افتح. أوّلاً البومة، ومن ثمّ القنفذ، والفيل، وأخيراً السمندل.

كرّر نيستور من المطبخ: «لا تحاولي عبثاً! لن يُفتح!».

تمتمت جوليا وهي تصرّ على أسنانها: «هذا ما تقوله...».

حرّكت المفاتيح في الأقفال، ثمّ شــدّت الباب ودفعته، لكنّه لم يتحرّك قيد أنملة.

حاولت مراراً وتكراراً، لكنّ الباب بقي مقفلاً بعناد.

عندما انضمّت إلى نيســتور في المطبخ، وجدته منحنياً فوق المجلــى الرخامي، يحدّق من خلال النافذة إلى الحديقة. كان قد وضع ركوة نحاسية لتغلي على النار.

قــال بصوت خافت وهو يحاول النظر إلى عينيها: «ســيجهز الشاي خلال لحظات...».

«لماذا لن يفتح الباب؟ ماذا تعرف عن هذا الباب؟ أين جايسون وريك الآن؟ وأين كنّا نحن الثلاثة منذ بضع دقائق فقط، قبل الانفجار؟».

هزّ نيستور كتفيه مجيباً: «أنت تكثرين من الأسئلة، ولا يمكنني الإجابة عليها جميعاً في وقت واحد. هذا إذا كنت أعرف الجواب عليها جميعاً... وهو أمر لا يمكنك افتراضه ببساطة».

اقتربت جوليا من مقعد ذي غطاء مزركش بالمربّعات الحمراء والبيضاء. جرّته نحوها بقدم واحدة ثمّ جلست عليه.

«لماذا تتصرّف بهذا الشكل؟ ماذا فعلت لك؟».

أطفأ نيستور النار تحت الركوة، ثمّ تناول مرطباناً من الخزف الأبيض والأزرق الفاتح، وأخرج منه قبضة من أوراق الشاي، ثمّ وضعها في الماء المغليّ.

«أنت لم تخطئي بشيء. في الواقع، أنا مسرور جدّاً لأنّك عدت سالمة».

«سالمة... مِمَّ؟».

تأفّف نيستور. كان الشاي قد بدأ يأخذ لون الركوة النحاسية.

أجاب بعد برهة: «من المكان الذي قرّرتم أنتم الثلاثة الذهاب إليه...».

الفصل 5

- اعترافات المساء -

عندما وصلا إلى سلّم



كبير يؤدّي إلى الخارج، قالت الفتاة المصرية: «بالمناسبة... اسمي ماروك».

«تشرّفت بلقائك. أنا جايسون وهذا...».

لحق بهما ريك بعد أن استخدم قطعة الخزف لرسم علامة على الجدار الذي مرّوا به للتوّ، كإجراء احتياطي، حتّى يتمكّنا هو وجايسون من إيجاد طريقهما لاحقاً.

«هذا ريك!».

«يا لهما من اسمَين غريبَين. هل أنتما نوبيّين؟». بدأت ماروك تسلّق الدرجات الحجرية.

أجاب الولدان بصوت واحد: «كلّا».

ابتسمت ماروك قائلة: «هذا جيّد... يقول والدي إنّ النوبيّين جميعهم لصوص. وبالنظر إلى الطريقة التي التقينا بها...».

قال جايسون ممازحاً: «إذاً قد تكونين نوبيّة أنت نفسك».

ابتسمت ماروك لمزحته، لكنّها أصرّت عليهما قائلة: «من أين أتيتما بالضبط؟ لدى التفكير في الأمر يقودني إلى أنكما نوبيّين، بشرتكما فاتحة جدّاً. هل أنتما فينيقيّين، أم مينوسيّين، أم ساميّين؟ أم تُراكما ليبيّين؟».

قال ريك: «في الواقع... من الصعب قليلاً شرح ذلك. فلنقُل فقط إنّنا أتينا من مكان بعيد، بعيد جدّاً».

تدخّل جايسون: «أنا إنكليزيّ وهو إيرلندي».

«إيلندي؟».

«إيرلنـــدي... بالراء. إيرلندا جزيرة. أنا أتيت من جزيرة أيضاً، لكنّها أكبر بكثير... تسمّى إنكلترا».

هزّت ماروك رأسها باستغراب. «لم يسبق لي أن سمعت بهذه الأرض».

حاول معها ريك مجدّداً: «المملكة المتّحدة؟».

«إذا كنت تقصد مصر العليا والسفلى، نعم. لكن، سأبوح لكما بسرّ صغير، أنا متأخّرة في دروس الجغرافيا».

تمتم جايسون مصدوماً: «إذاً لم تسمعي حتّى بفريق مانشستر يونايتد؟» عندما أجابت ماروك بالنفي، نظر إلى ريك وكأنّه يقول، «كيف يمكن لأحد ألّا يكون قد شاهد مانشستر يونايتد وهو يلعب كرة القدم؟».

لكن ما إن وصلوا إلى أعلى السلّم وخرجوا إلى وضح النهار، حتّى اتّضح لهما كلّ شيء.

وجدوا أنفسهم في حديقة واسعة محاطة بأسوار ضخمة. كانت الأســوار مرتفعة لدرجة أنّها بدت كالجبال، وكانت جدرانها ذات لون أحمر ناري ومبنيّة من الحجارة التي بدت وكأنّها تشتعل تحت أشعّة الشمس. انتشرت فيها فجوات وفتحات أوسع، وراحت طيور

النورس ترفرف عبرها. كانت الطيور صغيرة جدّاً بالمقارنة، بحيث بدت أقرب إلى ذبابات بيضاء صغيرة.

قال ريك وهو يلهث: «انسَ أمر مانشستر يونايتد...».

كانت ماروك غافلة تماماً عن المشهد المذهل، عندما توجّهت إلى وسط الحديقة، حيث ارتفع صفّ من أشجار النخيل وغيرها من الأشــجار، فضلاً عن القصب المتمايل وأحواض المياه، وتوزّعت بينها أبنية أنيقة مليئة بالأعمدة. انعطفت بعد ذلك عبر طريق واسعة من التراب الممهّد اصطفّت على جانبيها تماثيل صغيرة لأبو الهول، وكلّ منها يحمل وتداً مقوّساً لمظلّة توفّر الظلّ فوق الممرّ.

تبعها جايسون وريك بتردّد، وقد سيطر عليهما الذهول التامّ.

تمتم ريك، عندما قادهم الممرّ أخيراً إلى حقل مكسوّ بالأزهار المتفتّحة، تتجوّل فيه بكســل طيور البلشــون وأبو منجل بمناقيرها المدبّبة: «جايسون، أين نحن؟».

أجابه مشوّشاً: «ليس لديّ أيّ فكرة. لكن من الأفضل أن نتبع الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يشرح ذلك لنا...».

قالت ماروك: «إذا كنتما لا تمانعان، فأنا أرغب في التوقّف لرؤية أستاذي... بعد ذلك سأعرّفكما إلى والدي، رئيس الكتبة المعظّم».

قال جايسون بصوت خافت، وهو يلقي نظرة قلق على ريك: «ممتاز... ستعرّفنا إلى والدها».

توقّفت ماروك أمام تمثال يبلغ طوله ثلاثة أضعاف إنسان بالغ. كان على شكل رجل برأس قرد رباح يحمل بيده قلماً.

قالت الفتاة، مشيرة بتحيّة إلى الرجل القرد: «هذا تمثال الإله تحوت». بعد ذلك، توجّهت نحو مبنى مربّع يقع خلف التمثال.

تنحنح ريك وقرأ من القاموس: «تحوت: إله مصري قديم علّم البشريّة الكتابة والرياضيات».

قال جايسون: «لا تقل لي إنّنا عدنا في الزمن آلاف السنين لينتهي بنا الأمر في مدرسة!».

هزّ ريك كتفيه وتابع القراءة: «لحسن الحظّ، يبدو أنّه كان يعلّم أيضاً الموسيقى والألعاب».

قال جايسون بارتياح: «حمداً لله على ذلك...».

لحقا بماروك أمام المبنى المربّع، ونظرا إلى الأعلى ليتأمّلا صفّ الأحرف الهيروغليفيّة الملوّنة واللامعة التي تزيّن واجهته.

قال ريك وهو يقرأ الكتابة الهيروغليفيّة، كما لو كان الأمر طبيعياً تماماً. «مسكن الكتبة... لكن... جايسون...!».

أجاب صديقه وهو يتبع ماروك إلى داخل مسكن الكتبة: «لا تسألني كيف يعقل ذلك، لكنّني أستطيع قراءته أنا أيضاً».

كان مسكن الكتبة مظلماً وبارداً.

عندما ظهرت الفتاة وصديقاها الجديدان، انحنى الجميع.

ذُهل ريك وجايسون، لكنّهما حاولا الانحناء لردّ التحيّة. ثمّ جازف ريك بطرح سؤال: «هل كون والدك رئيس الكتبة المعظّم يعني أنّه... أنّه شخص مهمّ حقّاً هنا؟».

ابتسمت ماروك وأبعدت جديلة شعرها من فوق كتفها، ثمّ قالت: «باستثناء الفرعون وكبير الكهنة، فإنّه أهمّ شخص في بلادنا».

ازدرد ريك لعابه، بينما ابتسم جايسون من خلفه بفضول.

شقّ الأولاد الثلاثة طريقهم عبر رواق ضيّق مكسوّ بالكتابات الهيروغليفيّة، ووصلوا إلى قاعة كبيرة. هناك، كانت المياه تتدفّق من خلال شقوق في السقف وتتجمّع في حوض مركزي مغطّى بالبلاط الأزرق الفاتح.

شرحت ماروك قائلة: «هذا خزّان المياه... وهناك تقع قاعات الكتابة.. ومن هناك، أحواض الأزهار. وفي أعلى تلك السلالم، تقع الشرفة. انتظراني هنا. سأعود إليكما فور انتهائي».

ناول نيستور جوليا فنجاناً ساخناً من الشاي، ووقف ينظر إليها. حملت الفنجان بين يديها وأغمضت عينيها وهي تتنفّس البخار المتصاعد منه.

قالــت بعــد لحظة من الصمت: «أعتقد أنّنا كنّا في مصر... أو في مكان من هذا القبيل».

تمتم البستاني: «مصر... بالطبع... وكيف وصلتم إلى هناك؟».

استغرقت جوليا بعض الوقت لحمل نفسها على إخباره بكلّ ما جرى معهم بعدما عبروا الباب المخفيّ وراء الخزانة. لكن عندما قرّرت التحدّث، لم تُخفِ عنه شــيئاً: الغرفة المســتديرة، والدرج المؤدّي إلى الأســفل، والقفزة في الظلام، والســقوط، والكهف المضاء باليراعات، والميتيس.

«كان جايسون هو الذي تولّى الدفّة... وقاد السفينة».

ابتســم نيســتور عندما سمع ذلك التفصيل، لكنّه حرص على إخفاء ابتسامته خلف فنجانه. «جايسون، بالطبع. وعندما فتحتم باب الكهف، ذاك الذي تعلوه ثلاث سلاحف...؟».

«وجدنا أنفسنا أمام بهو مكسوّ تماماً بالرمال... ثمّ وصلنا إلى درج مسدود بجدار مزيّف، وبعد ذلك... بعد ذلك انهارت الجدر، وهربت».

«هممم...» كان ذاك ردّ نيستور الوحيد.

رفعت جوليا نظرها عن الشــاي متســائلة: «كيف يمكنك أن تكون بهذا الهدوء؟».

هــزّ كتفيه مجيبــاً: «لا أدري. ربّما يعــود الفضل إلى تربيتي الإنكليزية الصحيحة؟».

«حســناً، كفى!». قالت ذلك بغضب، ووضعت فنجانها بحدّة على الطاولة، ثمّ نزلت عن الكرسيّ.

«ماذا تفعلين؟».

«اتركني وحدي!».

ذهبت جوليا إلى غرفة الجلوس، وأضاءت المصابيح.

خــارج فيلّا آرغــو، احتدمت العاصفة. قعقعــت المصاريع الخشــبية على مفصلاتها وهي تهتزّ بفعل الرياح التي تسلّلت على ما يبدو إلى كلّ زاوية وركن، بينما راح المطر يجلد بسياطه جدران المنزل.

عبرت جوليا غرفة الجلوس، وتوجّهت إلى طاولة مســتديرة وضع عليها هاتف. كانت غاضبة لدرجة أنّها أســقطت الســمّاعة مرّتين قبل أن تتمكّن من إمساكها بكلتا يديها.

راحت تبكي محاولة طلب رقم المنزل في لندن الذي يمضي فيه والداها الليلة. «ماذا أفعل؟ لا أحد يساعدني هنا!».

كان الرقم الذي طلبته خاطئاً، فأغلقت السمّاعة.

سمعت البستاني يطفئ مصابيح المطبخ ويمشي باتّجاه غرفة الجلــوس، فصاحــت: «أنــا أتّصل بأهلي! هذا مــا أفعله! فهما قد ينصحانني على الأقلّ!».

رقم لندن. رقم...

بدأت دموع التوتّر تتساقط على قرص الهاتف.

أخيراً، تمّ الاتّصال.

فتحت جوليا فمها لأخذ نفس عميق، ثمّ تركت نفسها تسقط على الكرسيّ الكبير بجانب الطاولة. بينما كانت تجلس هناك، تنتظر بفارغ الصبر سماع صوت والديها، حدّقت إلى القنطرة التي تفصل غرفة الهاتف عن غرفة الجلوس.

رنّ الهاتف مرّة، ومن ثمّ مرّتين، ووجدت بطريقة ما أنّ الصوت الإيقاعي البطيء هدّأ أعصابها قليلاً.

ظهر نيستور من تحت القنطرة حاملاً شيئين أخذهما عن طاولة في غرفة الجلوس. كان يبتسم، مع أنّ ابتسامته كانت حزينة على غير عادة.

رفع البستاني الشيء الأوّل قائلاً: «رأس مور المنكمش. إنّه من بازار في أرض بونت، في مصر القديمة. يبلغ عمره نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة عام. قام السيّد مور بإحضاره معه إلى المنزل من رحلته الثالثة إلى مصر على متن الميتيس».

فغرت جوليا فاها دهشة وغطّت السمّاعة بيدها.

رفع نيستور الشيء الثاني وقال: «صندوق يحمل نقوشاً من كتاب الموتى، وهو نصّ ديني يستحيل العثور عليه الآن. يبلغ عمره خمسة آلاف سنة. قامت السيّدة مور بشرائه بعد مساومات مطوّلة خلال رحلتها السادسة إلى أرض بونت على متن الميتيس»، ثمّ

خفض يديه إلى جانبيه وســأل جوليــا: «والآن، هل تفهمين لماذا يمكنني أن أكون بهذا الهدوء؟».

رنّ الهاتف مرّة أخرى.

أخيراً، مسحت جوليا الدموع عن عينيها، وأغلقت الهاتف.



الفصل 6

- الشرفة -

مثلما اقترحت ماروك، صعد جايسون وريك الدرج، وخرجا إلى الشــرفة. عندما نظرا إلى الحديقة في الأســفل، تمكّنا للمرّة الأولى من فهم مخطّط المكان. فعلى الجانب الآخر من الأسوار، امتدّت مدينة فوضوية ذات مبانٍ منخفضة ومســتطيلة، وصولاً إلى ضفاف مجرى كبير من المياه الهادئة.

همس الولدان عندما رأيا المياه: «لا بدّ أنّه النيل...».

كان عبارة عن شريط من المياه بلون السماء، لكنّه يتألّق بأمواج برّاقة وتتخلّله أشرعة مثلّثة الشكل.

تــرك الولدان نظراتهما تتجوّل بحرّية، بينما ســطعت أشــعّة الشمس الحارقة على رأسيهما.

سأل ريك: «ماذا نفعل هنا؟».

حكّ جايســون رأســه مجيباً: «نحن نتجــوّل قليلاً في مصر القديمة، ونكتشف أنّنا قادران على قراءة اللغة الهيروغليفية».

ردّ عليه ريك: «أنا أقصد بشكل أكثر عموميّة. لماذا انتهى بنا المطاف هنا؟».

كان جواب صديقه بأن أخرج مذكّرات يوليسيس مور من رزمة مقتنياتهمــا وبدأ يقلّب صفحاته. «لأنّ مالك فيلّا آرغو القديم أراد ذلك». ثمّ قلب صفحة تصوّر قناع مومياء توت عنخ آمون مع عبارة: كنز الفرعون، وعرضها على ريك. «انظر! عندما كنت أمسك بدفّة الميتيس في المغارة، هذا ما كنت أفكّر فيه».

تمتم ريك: «الطفل الفرعون».

قال جايسون: «لا أعرف ما علاقته بهذا المكان... ولا أعرف ما علاقة المالك القديم بالفرعون، ولكنّني أودّ حتماً أن أكتشــف ذلك قبل أن نعود».

قلــب ريــك الصفحة التالية من المذكّرات. بخطّ صغير، كان يوليسيس مور قد كتب بعض المعلومات الموجزة عن مكان يدعى «أرض بونت». وكان ثمّة رسم بقلم الرصاص يصوّر بدقّة الطريق المظلّلة التي اصطفّت تماثيل أبو الهول على جانبيها، والتي عبرها الولدان قبل الوصول إلى مسكن الكتبة.

قــال ريك بصوت خافت: «لقد أتى إلى هذا المكان.... أنت تعرف، أليس كذلك؟».

«اشــتبهت بذلــك منــذ أن دخلنا المغارة. أجــل... لقد أتى يوليسيس مور مع زوجته إلى هنا، على متن الميتيس، مثلنا تماماً».

أومــأ ريك برأســه موافقاً، وقرأ الملاحظــات المدوّنة في الدفتر. «كتب السيّد مور السابق أنّ المدينة مكان عزيز جدّاً على قلــوب الفراعنة، الذيــن جذبهم جمالها وقاموا برحلات متكرّرة لزيارتها. هممم... آه! اســمع ماذا كُتب هنا! بونت هي نوعاً ما مدينــة أفريقية ضائعة... لم ينجح أيّ عالم آثار في العثور عليها قطّ».

«وهل يقول شيئاً عن تلك الأسوار العملاقة؟».

قلب ريك بضع صفحات. «آه، أجل... يقول هنا إنّ أعظم كنز في كلّ أنحاء بونت مخبّأ داخل هذه الأسوار. إنّها متاهة من السلالم والممرّات والحفر والأبراج، مع أنفاق وممرّات تؤدّي إلى كلّ الاتّجاهات... وحتّى إلى تحت الأرض».

حملق جايسون إلى الأسوار. «و... لماذا يحتاجون إلى متاهة هنا؟».

هزّ ريك رأسه قائلاً: «دعني أقرأ قليلاً بعد. حسناً... ها هو... في مكان ما في هذه الحديقة ثمّة متاهة. إنّه معبد يدعى بيت الحياة مخصّص للإله تحوت. وقد خُزّنت المجموعة داخل هذه الشبكة من الأروقة الشبيهة بثقوب الجبن السويسري، وهي تحتوي على كافة معارف العالم القديم...». قلب ريك الدفتر جانباً لقراءة ملاحظة كتبها يوليسيس في هامش الصفحة. «قبل ألف عام من مكتبة الإسكندريّة الكبرى».

أطلق جايسون صفيراً من شدّة دهشته.

واصل ريك القراءة بسرعة. «إنّه موقع مرغوب يسعى إليه جميع المسافرين من العصور القديمة، إذ يمكن العثور على أيّ شيء في أرض بونت. فكلّ يوم يتمّ تبادل البضائع من جميع الأصناف في أسواقها، وفي مينائها، أو على طول طريق القوافل: لفائف، عنبر، بخور، ذهب، عاج، كوارتز، وأقزام...». توقّف ريك فجأة. «ماذا يقصد بالأقزام؟».

«أعتقد... أنّه يعني الرجال الصغار من الغابة!». أجاب جايسون بذلك وهو يقلّد حركات قرد المكّاك.

ضحك ريك وعاد يقرأ الملاحظات: «أخيراً، ثمّة خارطة بدائيّة للمدينة... أو على الأقلّ هذا ما يبدو عليه الرسم».

«دعني أرَ».

أراه الصبيّ ذو الشعر الأحمر رسماً لسلسلة من الطرق والساحات المتقاطعة. وكانت بعض المناطق محاطة بدائرة.

على الصفحة المقابلة، كُتبت هذه الكلمات المحيّرة بعجل أكبر:

لإيجاد الاتّجاهات، ستحتاج إلى
الحظّ الجيّد ونجوم الحظّ.
ابحث عن الخارطة في البرج
تحت العصيّ الأربع.

في تلك اللحظة، سمعا ماروك تناديهما. فدسّ ريك المفكّرة بسرعة في رزمة الأغراض وهمس قائلاً: «ماذا سنفعل؟».

أجابه جايسون: «في الوقت الحالي، من الأفضل أن نتبعها، وسنفكّر في الباقي لاحقاً...».

غادر الثلاثة مسكن الكتبة واستعدّوا للقاء والد ماروك، الذي

كان يقيم، بصفته رئيس الكتبة المعظّم، في بيت الحياة، أي داخل الأسوار نفسها.

بينمـــا كانوا يعبـــرون الحديقة، طرح جايســـون وريك بعض الأسئلة على الفتاة حول بيت الحياة، والمجموعة، وتحوت، لكنّ إجاباتها كانت غامضة جدّاً، كما لو كانت تتحدّث عن أمور يعرف الجميع أنّها تسبّب لها الملل.

قـــادت ماروك الولدين إلى المدخل الكبير لبيت الحياة. كان ثمّة تمثالان كبيران يمسكان بجانبي المدخل، وكانت كلّ درجة من الدرجات المؤدّية إلى الداخل مطليّة بلون مختلف.

عبروا العتبة ليجدوا أنفسهم محاطين بجمع غفير من الناس. فشعر جايسون كأنّه عاد إلى محطّة لندن خلال ساعة الذروة.

كانت دهشة الصديقين كبيرة بحيث عبرا بصمت مطبق القاعة الهائلـــة التي توزّعت على جانبيها مداخل لأروقة وممرّات موزّعة على عددٍ لا حصر له من الطوابق. انتشـــرت عشـــرات السلالم في القاعة الفســـيحة، وكانت تلتفّ إلى الأعلى والأسفل بين المدخل الكبير والأروقة في الأعلى. وفي وسط الغرفة تماماً، كان ثمّة حفرة عمودية، واســـعة تشبه حوض سباحة أولمبي، تؤدّي إلى الأسفل، وتبدو منها مئات الســـلالم والأروقـــة والممرّات الأخرى. وعلى طول جدر الحفرة، تنقّل أشـــخاص يدفعون عربات خشـــبية تحمل لفائف البردي ويصدر عنها صرير صاخب.

تنشّقوا المزيج الغريب من الروائح التي عبق بها الهواء الحارّ والمحمّـــل بالغبار؛ روائح الجلود، وورق البردي، والقرفة، وجوز الطيب.

أعلنـــت مـــاروك بصـــوت مهيـــب: «أهـــلاً بكـــم داخل مجموعتنا...».

ســـألها جايسون وهو يحاول تجنّب سلّة كبيرة مليئة باللفائف يتمّ سحبها من الحفرة: «وماذا تجمعون... هنا... بالضبط؟».

«كتابـــات، ولفائف بردي، وألـــواح... هذا فضلاً عن تماثيل، وأثـــاث، وأدوات حرفيـــة، وعمـــلات معدنيـــة... كلّ ما يعطى لنا لحفظه، وحمايته».

شـــاهد جايســـون رجالاً مشغولين يتســـلّقون السلالم إلى أن يصبحوا صغاراً كالحشرات، أو يهبطون الأرض حتّى يختفوا تماماً في الظلام، فلم يستطع إلّا أن يتخيّل قرية نمل.

سأل ريك بحيرة ودهشة: «وهل والدك هو الذي يشرف على كلّ هذا؟».

أجابت ماروك بفخر: «أجل. تعاليا معي!».

قـــادت الفتاة صديقيها الجديدين نحو رجلين يرتديان لباســـاً أرجوانيـــاً وغطـــاء رأس طويـــلاً أزرق اللون، مزيّناً بريشـــة طويلة بيضاء. وقف الاثنان في زاوية مظلمة بين بعض التماثيل، يحتسيان

الكركديــه ببطء. عندما رأياها، حاولا إخفاء كوبي الشـــاي خلف ظهريهما وانحنيا بتصلّب.

لم تفكّر ماروك في الانحناء لهما، بل اكتفت بتحيّتهما قائلة: «حضرة المفهرسان الموقّران، نودّ أنا وصديقاي رؤية رئيس الكتبة المعظّم في جناحه».

تنحنــح الرجل الأطول قامة بين الاثنين، وكانت تعابيره جافّة مثل قصب البردي، ثمّ رفع أحد حاجبيه وأجاب بتحفّظ بالغ: «أنا آسف يا صغيرتي، ولكنّ القاعدة رقم 32 تحظر عليّ وعلى تلميذي تلبية رغبتك».

هزّ الرجل الآخر رأسه آسفاً، وكان أقصر قامة وأكثر امتلاءً.

عبست ماروك وسألته: «وعلام تنصّ القاعدة رقم 32؟».

«عدم إيلاء أيّ اهتمام للأطفال».

وضعــت ماروك يديهــا على خصرها واحتجّت قائلة: «لكنّني ابنة رئيس الكتبة المعظّم!».

تأمّلهــا الرجــل الأطــول قامة عن كثب ثمّ تظاهر بالدهشــة وأجاب ســاخراً: «أعتقد أنّك على حقّ، سامحيني. لكن مع ذلك، من المستحيل أن ألبّي رغبتك».

«ولماذا؟».

«القاعدة رقم 4: الأمن. يقولون إنّ الفرعون ســيصل في أيّ لحظة الآن. ألم تلاحظي كلّ الجلبة في بيت الحياة اليوم؟ ونحن

المفهرسون نعمل بجدّ لترتيب كلّ شيء. الناس يشتكون لأنّهم يريدون الدخول، لكنّنا تلقّينا أوامر صارمة. القاعدة رقم 12: يُمنع على أيّ شخص دخول بيت الحياة حتّى إشعار آخر».

أومأ المفهرس السمين برأسه بحزن.

قالت ماروك بحدّة، مشيرةً إلى حفلة شاي الكركديه الصغيرة: «في الواقع، لا أعتقد أنّكما مشغولان حقّاً...».

ظهرت ابتسامة صغيرة على وجه المفهرس السمين، لكنّها سرعان ما اختفت أمام النظرة الجادّة التي رمقه بها زميله.

تابعت ماروك: «مع ذلك، نريد أنا وصديقيّ دخول جناح أبي».

«آه... بالطبع، غرفة رئيس الكتبة المعظّم. في الواقع، يا صغيرتي، وفقاً للقاعدة...».

انفجرت ماروك قائلة: «لا آبه لما تنصّ عليه قواعدك! أريد دخول جناح أبي!».

فرك المفهرس الأطول قامة يديه بتعالٍ، وقال: «بطبيعة الحال. في الواقع، مع الأسف، لا يستطيع صديقاك دخول مبنى المجموعة».

«ولمَ لا؟».

«بسبب القاعدة رقم 12، ألم تسمعي بها؟ يُمنع على أيّ شخص دخول بيت الحياة حتّى إشعار آخر».

«لكنّني آمرك بالسماح لهما بالدخول!».

دمدم المفهرس: «في هذه الحالة... أخبرها أنت يا بيبي».

تلا عليها المفهرس السمين نصّ القاعدة: «القاعدة رقم 8: يجب أن يحمل الضيف تصريح مرور في جميع الأوقات. صحيح يا ميسيرينوس؟».

أجاب زميله برضى: «تماماً يا بيبي».

تأفّفت ماروك، ثمّ التفتت إلى ريك وجايسون اللذين لم يتفوّها بكلمة بعد. «هكذا هما دائماً، يدقّقان كثيراً». ثمّ شنّت هجومها مجدّداً: «أنتما على حقّ. لا يملك صديقاي تصاريح مرور. لكن إذا حصلا على تصاريح... فهل تسمحان لهما بالدخول معي لرؤية أبي؟».

تمتم المفهرسان بحديث خافت في ما بينهما للحظة، وراجعا مختلف القواعد واللوائح، ثمّ أعطيا جوابهما أخيراً.

أعلن ميسيرينوس: «أجل في الواقع، سنسمح لهما بذلك».

أضاف بيبي: «ما من قاعدة تمنع ذلك».

هتفت ماروك: «هذا رائع! إذاً أخبراني، من أين يمكننا الحصول على تصريحَين؟».

أجاب بيبي على الفور: «القاعدة رقم 41: على الراغب بالدخول طلب تصريح من أحد المفهرسين».

رمقه ميسيرينوس شزراً.

«ممتاز! إذاً هلّا تفضّلتما بإعطاء صديقَيّ تصريحَين لكي نتمكّن من الذهاب لرؤية أبي في جناحه؟».

كان نيستور يحدّث جوليا قائلاً: «كثير من الأشياء التي ترينها في هذا المنزل أتت من رحلات قام بها يوليسيس مور وزوجته على متن الميتيس».

كان الاثنان قد عادا إلى الغرفة الحجرية، وحملا فنجانيهما وهما يحدّقان إلى الباب الأسود في الجدار.

«وأنت، ألم ترافقهما يوماً؟».

ابتسم نيستور تائهاً في أفكاره. عضّ على شفته تكراراً قبل أن يقرّر كيف يجيب. «كلّا... فقد ظننت أنّه من الأفضل أن أبقى هنا للاهتمام بكلّ شيء آخر».

«لكن ألم يطلبا منك مرافقتهما؟».

ضحك نيستور مجيباً: «بالطبع طلبا منّي ذلك، ولا سيّما بينيلوبي. كما أنّ السيّدة مور دعتني دائماً لمرافقتهما على متن الميتيس. فقط لو تعرفين كم ألحّت عليّ في محاولة لإقناعي. لكنّني... كلّا... فضّلت البقاء هنا في مكاني، في خليج كيلمور.

فأنا أحبّ الأشـــياء التي تلازم مكانها، كالأشجار والصخور. وفي الواقع، كان السيّد مور يحبّها هو أيضاً. ولطالما قال لي: فقط عندما تبقى في مكانك، تدرك كم يتنقّل الناس طوال الوقت، وبدون سبب حقيقي».

أخذت جوليا رشفة من فنجانها وقالت: «لكن لا يبدو أنّه كان يلازم مكانه كثيراً...».

قاطعها البستاني قائلاً: «لقد كان رحّالة، والرحّالة لا يتنقّلون، بل يسافرون. لكن لكي تتمكّني من السفر، أنت بحاجة إلى قاعدة، وهي المكان الذي تنطلقين منه. وعليك دائماً العودة إليه لتستعدّي لرحلتك التالية. فما من دائرة بلا مركز، وما من رحلة بلا عودة، أو على الأقلّ... هذا ما كان على وشـــك أن يقوله. هذا ما قاله أيضاً عن الرحلة الأكثر صعوبة على الإطلاق. أنت تعرفين ما أقصده».

قالت جوليا: «تقصد الموت».

«أقصد الموت».

«كيف كان المالك القديم على أيّ حال؟».

عبس نيستور مفكّراً. «كان حادّاً، وذكياً. وقد أحبّ هذا المنزل أكثر من أيّ شيء آخر في العالم. هذا المنزل، وزوجته».

«وماذا عن بينيلوبي؟».

«كانـــت امـــرأة لطيفة، جاهزة دائماً للمســـاعدة، طيّبة القلب، ومليئة بالأحلام».

أومأت جوليا برأسها موافقة: «وأنت؟ كم مضى عليك هنا؟».

هزّ نيستور كتفيه مجيباً: «أوه، ومن يتذكّر؟ أشعر أنّني عشت هنا منذ الأزل. أعني... هناك... في بيت الضيافة. علماً أنّني أمضيت من الوقت في هذا المنزل أكثر ممّا أمضيت في منزلي. ففي كلّ مرّة كان يعبر فيها الزوجان الباب السحري وينطلقان في رحلة... كانا يبتعدان لمدّة قد تتراوح بين عشرة أيّام وخمسة عشر يوماً، وأحياناً لأشهر كاملة. فكنت أهتمّ بالحديقة، وكذلك بالمنزل. أعتني بالمفروشات، والتماثيل، أي كلّ الأشياء التي كانت لهما وباتت اليوم ملكاً لوالديك... أعتني بغرفة الجلوس، والمكتبة، وغرف النوم، والعلّية. كنت أرتّب بعض الأثاث بنفسي، في حين أنّ الباقي... حسناً، كان الباقي يقع على عاتق بيني، أعني... السيّدة مور».

«ماذا تقصد بذلك؟».

«كانت هي من تقرّر أين توضع الأشياء التي يحضرانها من كلّ رحلة. فتقول: هناك، هناك ستكون ممتازة! وكان السيّد مور ينظر إليّ كمن يقول: ما إن تضعها هناك، فلن تُنقل من مكانها أبداً. هذا بطبيعة الحال ما لم تقرّر السيّدة مور إعادة ترتيب المنزل. وفي هذه الحالة، صدّقيني، تُقلب فيلّا آرغو رأساً على عقب لأيّام عدّة».

«لا شكّ أنّهما كانا زوجَين غير عاديَين».

«هذا مؤكّد».

«أتمنّى لو اســتطعت مقابلتهما. أليس لهما صورة أو لوحة؟ بالحديث عن ذلك، أعتقد أنّك تعرف أنّ لوحة يوليسيس مور في أعلى الدرج مفقودة. هل لديك فكرة عمّا حلّ بها؟».

فرك نيســتور يديه بلطف مجيباً: «أعتقد أنّها في مكان ما في العلّية. فيوليسيس مور لم يكن يكترث كثيراً لتلك اللوحة. كان يقول إنّه كلّما رآها يشعر أنّه مات أساساً. وبعد أن توفّيت زوجته...».

سألته جوليا: «وكيف ماتت؟».

أجاب نيستور بعد صمت طويل: «سقطت في الهاوية».

الفصل 7

- المجموعة -



أصدر بيبي وميسـيرينوس، المفهرسَين في بيت الحياة، لكلّ من ريك وجايسـون خنفسـاء مصنوعة من الحجر الأسود، تشكّل تصريحاً يتيح لهما استكشاف المجموعة بحرّية.

بعـد ذلـك، رافقاهم إلى درج ضيّق يصعد على طول الجدار الداخلـي لبهـو المدخـل الكبير، ويؤدّي إلى ممـرّ ضيّق أرضيّته منحدرة.

قال ميسـيرينوس بفخر، بينما لامسـت ريشـة قبّعته السقف المنخفـض: «أنا وبيبي نعرف الطرق المختصرة التي لا يسـتطيع كثيرون آخرون حتى تخيّلها. من هنا أيّها الضيوف الكرام. سنرافقكم مسافة قصيرة قبل أن نعود إلى أعمالنا المهمّة للغاية».

كان الممـرّ مغمـوراً بضوء خفيف يعكسـه نظام عبقري من المرايا البرونزيّة. وكانت الجدر مطليّة باللون الأصفر، تتخلّلها في بعض الأماكن فجوات بمختلف الأحجام تحتوي على لفائف من ورق البردي، والألواح الخشبية، والتماثيل المكسوّة بالغبار.

لاحـظ ريـك أنّ كلّ فجوة تحمل رمـزاً أو رقماً أو كليهما. وتخيّل أنّها تساعد أولئك العاملين في مبنى المجموعة على أرشفة الكمّ الهائل من الموادّ.

سـرعان ما دخلوا قاعة دائرية تعلوها سماء زرقاء. كان الأمر أشبه بالنظر إلى الأعلى من أسفل مدخنة.

سـلكوا الـرواق الآخر الوحيد الذي يـؤدّي إلى القاعة ذات

المّنــور، وواصلوا طريقهم بصمت. توجّهــوا نحو مدخل ممرَّين آخرين يقودان باتجاهين متعاكسَين، وسلك ميسيرينوس بثقة الممرّ الواقع إلى يمينهم، والذي كان أكثر انحداراً بكثير من الآخر.

تقدّم ريك للسير إلى جانب بيبي، وسأله بصراحة: «ماذا تفعلان هنا بالضبط؟ هل تتولّيان الأمن؟».

أجاب ميســيرينوس بدلاً من بيبي، حتّى من دون أن يســتدير: «القاعدة رقم 17: مهمّة الأمن تُترك للحرّاس. وظيفتنا أن نتذكّر ما يتمّ تخزينه داخل المجموعة». قال المفهرس ذلك مشــيراً بطريقة عابرة إلى الفجوات على جانبَي الممرّ.

أضاف: «كلّ كوّةٍ من هذه الكوّات يحتوي على شيء ما. ونحن وحدنــا نعــرف ماذا يوجد فيها وكيف يمكــن العثور عليه. وننقل معرفتنا إلى تلامذتنا».

سأله ريك: «شفهيّاً؟».

أجاب ميسيرينوس: «بطبيعة الحال... فتدوين الأشياء لا يساعد إلّا على إضعاف ذاكرة الإنسان».

حــكّ ريك رأســه غير مصدّق. «لكــن ثمّة مئات الآلاف من الكوّات هنا! هل تقصد أنّ كلّاً منكم يعرف كلّ كوّة منها؟».

أجاب ميسيرينوس: «أوه كلّا. بالتأكيد لا. هذا مستحيل. فكلّ مفهرس مسؤول عن مبنى واحد وعدد معيّن من الغرف، ويشرف فقط على الكوّات الموكولة إليه».

«وما... وما حجم هذا المكان؟».

«القاعدة رقم 2: المجموعة مقسّمة إلى اثنين وعشرين مبنى. وكلّ مبنى يحتوي على اثنتين وعشرين غرفة. وكلّ غرفة تحتوي على اثنين وعشرين رواقاً. وكلّ رواق يحتوي على...».

خمّن ريك. «اثنتين وعشرين كوّة؟».

صدرت ضحكة ساخرة عن ميسيرينوس: «ولماذا - بالله عليك - يجب أن يحتوي على اثنتين وعشرين كوّة؟ لا بل على اثنتين وخمسين، أو مائة وأربع، أو مائة وستّ وخمسين».

تمتم جايسون لصديقه: «ألم يكن بإمكانهم استخدام شيء أكثر بساطة، مثل عشرة بعشرة بعشرة؟».

أضاف ميسيرينوس: «القاعدة رقم 2 لا تخصّ سوى المجموعة أعلاه، بطبيعة الحال... بعد ذلك، ينبغي أخذ جميع الأروقة الممتدّة تحت الأرض بعين الاعتبار. وهي كثيرة، كثيرة جدّاً... على أيّ حال، سنترككما هنا، لأنّنا مضطرّان للعودة إلى عملنا الشاقّ للغاية». وختم المفهرس قائلاً: «لقد وصلتم تقريباً، أيّها الضيوف الكرام. للوصول إلى جناح رئيس الكتبة المعظّم، عليكم أن تسلكوا ذاك الرواق، وتتوجّهوا مباشرة إلى الأسفل من دون الانعطاف. وهكذا تصلون إلى الهرم في غمضة عين».

توجّه ريك وجايسون وماروك نحو الرواق.

خلفهم، استدار المفهرسان، لكنّهما أضافا تحذيراً: «تذكّروا

القاعــدة رقــم 9: يُحظر لمس أيّ من موجودات الكوّات من دون مساعدة المفهرس».

أجابت ماروك مبتسمة: «مفهوم».

«و... القاعدة رقم 19: إذا ســمعتم الحرّاس ينفخون أبواقهم، عليكم مغادرة بيت الحياة بأسرع ما يمكن».

أشار جايسون وهم يتّجهون نحو غرفة رئيس الكتبة المعظّم: «لا شــكّ أنّه من الســهل أن يضيع المرء بين كلّ هذه الممرّات والكوّات».

أجابت ماروك: «أوه، أجل. ولهذا وُجد المفهرسون: لكي لا نضيع هنا».

«لكن هل ثمّة شخص قام باستكشاف المجموعة بالكامل؟».

أجابــت الفتاة وهي تمــرّر يدها على الحائط الرخامي: «ربّما أبي. ولكن ليس كلّها. كما أنّ ثمّة أروقة لم تطأها قدم منذ سنوات، إنّها الأروقة المهجورة».

حرّكت ماروك يدها في الهواء وكأنّها تدرأ الشرّ.

قال ريك: «أتخيّل أنّك تعنين تلك الموجودة تحت الأرض... التي تؤدّي إليها تلك الحفرة...».

«أوه كلّا. تلك هي المجموعة السفليّة. الأروقة المهجورة تقع في الأعلى...».

توقّفت ماروك للنظر إلى صديقيها. لمعت عيناها بعصبيّة غريبة عندما بدأت تروي الحكاية. «منذ مدّة من الزمن... اندلع حريق في تلك الأروقة، وخسر كثير من الناس حياتهم. لم يتمّ العثور قطّ على مفهرسَين، وكانا زوجاً وزوجة، إذ فُقدا في الحريق، مع كلّ ما كان مخزّناً في ذلك القسم».

تمتم جايسون مربكاً: «يا لها من قصّة...».

استأنفت ماروك سيرها. «تماماً كما ورد في أغنية العاشقَين...».

«وما هذه؟».

«إنّها أغنية عن عاشقَين يهيمان في هذه الأروقة منذ مئات السنين، وكلٌّ منهما يبحث عن الآخر من دون أن يجتمعا أبداً».

سارع جايسون إلى سؤالها: «أمّا نحن، فعلى العكس... نعرف تماماً إلى أين نحن متّجهون، أليس كذلك؟».

ابتسمت ماروك مجيبة: «تقريباً... أنا لم أسلك هذه الطريق من قبل».

لحسن الحظّ، تبيّن أنّ توجيهات ميسيرينوس كانت صحيحة. فعلى مسافة مائة خطوة إلى الأسفل، أدّى بهم الرواق إلى مساحة أكثر اتّساعاً، ووجد الأولاد أنفسهم داخل هرم مثالي ذي قاعدة مربّعة.

تنهّدت ماروك بارتياح عندما تعرّفت على المكان: «لقد نجحنا! هذا هو جناح أبي!».

كانت الغرفة بسـيطة وفاخرة في الوقت نفسـه. فقد تطايرت سـتائر الكتّان الكبيرة في الرياح، وتدلّت من السـقف مثل أشرعة سفينة، بينما ظهرت فتحتان عريضتان على جانبَي الجدر.

رُتّبت في وسط الغرفة أربع طاولات مليئة بالأشياء، وأمامها أربـع أرائك منخفضة. على الجـدار الخلفي، بدت كوّات مماثلة لتلـك الموجودة في الممـرّات، وكلّ واحدة تحمل رمزاً مختلفاً. واصطفّـت على الجدران الأخـرى لفائف ومخطوطات من ورق البردي، مثل مواسير خيوط ضخمة.

نـادت ماروك وهـي تتقدّم بضع خطـوات داخل الغرفة: «أبي؟».

لم يأتها أيّ ردّ. مشت حول الطاولات الأربع ونادت مجدّداً، لكنّ أحداً لم يجبها.

وقف جايسـون وريك هناك ينتظران عند العتبة، وقد أرهبهما المكان المهيب.

همس جايسون لصديقه: «ربّما يجدر بنا الخروج من هنا، قبل أن يظهر والدها ويبدأ بطرح الأسئلة...».

في تلك اللحظة، دخلت امرأة من الجهة المقابلة.

هتفت: «ماروك! ماذا تفعلين هنا؟».

التفتت الفتاة إلى صديقَيها وطلبت منهما الاقتراب. فتقدّم ريك

وجايســون بحذر علــى الأرض اللازوردية، ووقفا بجانب إحدى الطاولات.

قالت المرأة لماروك: «والدك ليس هنا... لقد ذهب لاستقبال الفرعون».

نظر جايســون وريك إليها وابتسما بخجل. كانت ترتدي ثوباً أبيــض طويــلاً، وكانت وقفتها غريبة وأنيقة فــي آن. التفّت قطعة قمــاش بيضاء طويلة حول عنقها وذراعها اليســرى، بينما رافقت ذراعها اليمنى كلّ كلمة بحركة رشيقة.

همســت ماروك لصديقيها: «لقد خسرت مساعدة أبي قدرتها على استخدام ذراعها خلال الحريق الذي أخبرتكما عنه منذ قليل. ويقــال إنّها فقدت ذاكرتها أيضاً، لأنّها تلقّت ضربة على الرأس... لذا إن سمعتماها تقول أموراً غريبة بعض الشيء، فتجاهلا ذلك...» ثمّ سألتها بصوت عالٍ: «ومتى سيعود أبي؟».

«القرار ليس بيده، بل يعتمد على الفرعون. إذا رغبتم بانتظاره هنا، فقد تتمكّنون من مقابلة توت عنخ آمون...».

قال جايسون وهو يتقدّم خطوة باتّجاهها: «توت عنخ آمون؟» ثمّ مال نحو ريك مضيفاً: «ماذا قلت لك؟ لقد كنت واثقاً من وجود صلة بينه وبين هذا المكان!».

ابتســمت المــرأة متســائلة: «مــاروك، من... يكــون هذان الصديقان؟».

«إنّهما من زوّار بيت الحياة. وصلا إلى هنا أمس مع السفن».

«مع الأسطول الملكي؟».

تمتم جايسون: «أ-أجل... أليس هذا صحيحاً يا ريك؟».

انتقل ريك جانباً لتجنّب أشـعّة الشمس الساطعة. ومن حيث كان يقــف الآن، اســتطاع رؤية المرأة التي تتحــدّث إليها ماروك بوضـــوح. كانـــت امرأة في منتصف العمر ذات وجه رقيق ينمّ عن طيبة لا تصدّق.

كرّر جايسون سؤاله: «أليس هذا صحيحاً يا ريك؟».

«بلى، بالطبع... لقد جئنا إلى هنا مع الأسطول...».

قالت المرأة بمرح: «هذا رائع. وعلى متن أيّ سفينة تحديداً؟» ثمّ رفعت يدها وأشارت إلى الطاولة بجانب ريك.

عندئذٍ فقط، لاحظ أنّ الأشياء الموضوعة على الطاولة كانت في الواقع مجموعة كبيرة من نماذج السفن، بما في ذلك الفلوكة والمراكب الأصغر حجماً.

ســارت ماروك إليه وقد لاحظت دهشــته. «هل أعجبتك يا ريك؟ أبي هو الذي صنعها. فهو شغوف بذلك!».

وقف الصبيّ ذو الشعر الأحمر في صمت مطبق.

مرّت نظراته على النماذج العديدة، وراح يقارنها في ذهنه بتلك التي رآها في غرفة البرج في فيلّا آرغو قبل بضع ساعات.

ســرت رعشة على طول عموده الفقري، وهمس على أثرها:

«لقد جئنا على متن هذه...»، وأشـــار إلى ســـفينة بدت كأنّها نسخة مطابقة لعين نفرتيتي في فيلّا آرغو.

لم يكن جايسون أقلّ ذهولاً منه.

«أوه، لا شـــكّ أنّها كانت رحلة ممتعة إذاً...!». هتفت المرأة بذلك وهي تتقدّم نحوهما. واحتكّ ثوبها الكتّاني الطويل بالأرضيّة اللازورديّة.

قال ريك وقد وجد نفسه فجأة غير قادر على التنفّس: «أجل... كانت رحلة ممتعة».

حمـــل نموذج عيـــن نفرتيتي وأعطاه لجايســـون، الذي تمتم بدهشة: «هذا مستحيل... هذا مستحيل...».

ضحكت المرأة قائلة: «ســـيفرح رئيـــس الكتبة المعظّم عندما يعرف أنّ أعماله أعجبتكما إلى هذا الحدّ».

ســـألها ريك: «وهل يصنع رئيس الكتبة المعظّم هذه النماذج منذ زمن طويل؟».

أجابت ماروك: «إنّه يصنعها دائماً! فكلّما وجد فرصة، جلس إلى تلك الطاولة وتناول أدواته. يقول إنّه عندما يعمل على الأشياء الصغيرة، يمكنه التركيز على الأشياء الأكبر. أليس هذا صحيحاً؟». طرحت هذا السؤال وهي تلتفت نحو المرأة.

ابتســـمت المرأة مجيبة: «يقول والدك أيضاً إنّه يتمنّى لو كان يملـــك مزيداً من الوقت ليتمكّن من إنهاء الأســـطول بأكمله. لقد

مضــت أشــهر الآن... لا بل عــام تقريباً، لم يتمكّن فيه من إكمال نمــوذج لإحدى الســفن. هل ترغبان برؤيــة النموذج الذي يعمل عليه؟».

عندما أومأ ريك برأسه موافقاً، استدارت المرأة، وذهبت إلى منضدة عمل والد ماروك.

كان في وسط الطاولة نموذج مغطّى بقطعة من القماش. رفعته مساعدة رئيس الكتبة المعظّم بعناية، مستخدمة يدها اليمنى فقط.

عندما وقع نظر ريك على نموذج السفينة، شعر بثقل مفاجئ في قدميه، كما لو أنّ أحدهم سمّرهما بالأرض.

سألتهم المرأة: «أليس جميلاً؟».

كانت الســفينة التي تحتلّ وســط طاولة رئيس الكتبة المعظّم هي الميتيس.

قالــت جوليا للبســتاني في الغرفة الحجرية فــي فيلّا آرغو: «أخبرني عن الباب».

وضــع نيســتور فنجانه على الطاولة وقــال: «في الحقيقة، لا أعرف ســوى ما أخبرني به السيّد والسيّدة مور. ذاك الجدار الذي

يضمّ الباب، هو جزء من الجناح الأقدم في المنزل. تمّ بناؤه قبل مجيء الرومان إلى إنكلترا، وحتّى قبل السلتيين، وربّما حتّى قبل بناء ستونهنج».

كتفت جوليا ذراعيها، وقد بدا عليها شيء من التشكّك. «لكن من بناه إذاً؟».

أجاب نيستور: «لا أدري. وكذلك آل مور لم يعرفا أيضاً. في الواقع، أعتقد أنّ الغرض من قيامهما بتلك الرحلات على متن الميتيس كان اكتشاف ذلك».

«هل تقصد أن تقول أنّ الباب كان موجوداً هنا دائماً؟».

«هذا ممكن...».

«أخبرني الحقيقة!».

كرّر البستاني: «أنا لا أعرف ما هي الحقيقة، لكنّني أعرف أنّ السيّد مور ليس أوّل من أقام في فيلّا آرغو. فقد كان دائماً ثمّة مسكن من نوع ما في هذا المكان، إمّا قلعة، أو برج، أو شيء من هذا القبيل. ويمكنك إيجاد شجرة العائلة بأكملها في المكتبة، إذا كنت مهتمّة بقراءتها. لكن من السهل أن تضيعي في تفاصيل كلّ ذلك التاريخ».

«وإلى أيّ عام يرجع؟».

«لم أرَه سوى عدّة مرّات عندما أخرجته بينيلوبي لتمسح عنه الغبار. لكنّه شديد التعقيد ويعود إلى زمن بعيد كانت فيه شهرة أسرة زوجها تُكتب More».

«التي تعني أكثر، أي عكس أقلّ...».

هزّ نيستور رأسه نافياً. «في الواقع، تلك الكلمة ليست إنكليزيّة... بل لاتينيّة، وتعني عرف أو تقليد أو ممارسة قديمة. يمكنك البحث عنها في قاموسك، إذا أردت».

أجابت جوليا بحدّة: «لقد أخذ ريك القاموس معه، والآن أريد أن أستعيده منه».

في تلك اللحظة، نهض نيستور فجأة. «لقد تأخّر الوقت. أعتقد أنّ من الأفضل أن تصعدي إلى الطابق العلوي وتنالي قسطاً من النوم».

نظرت إليه جوليا بدهشة. «ماذا؟ أخي وريك لا يزالان في مصر، في مكان ما في... في...».

أجابها نيستور بهدوء وهو يفتح النافذة ليرى ما إذا كانت السماء لا تزال تمطر: «في أرض البونت».

«بالضبط! ما زالا في أرض بونت، وتتوقّع منّي أن أخلد إلى النوم؟! يجدر بي أن أذهب لمساعدتهما! فقد يكونان في خطر!».

قال نيستور وهو يهزّ رأسه: «يا لنواياك الحسنة، ولكن لا يمكنك ذلك».

«ولماذا؟».

«ما داما هناك، سيبقى الباب مقفلاً أمامنا من هذا الجانب».

«أنا لا أصدّقك!».

أشـــار نيســـتور إلى الحروق والخدوش التي تشـــوّه الخشب وقال: «من المستحيل فتحه قبل عودة المسافرين إلى البيت، أو... إذا لم يعودا قادرَين على العودة مجدّداً. لقد خرج ثلاثة مسافرين من هذا الجانب. ويجب أن يعود ثلاثة مسافرين قبل أن يُفتح مرّة أخرى. أنا آسف، لكن هذا هو القانون. وما بيدنا سوى الانتظار».

كانـــت جوليـــا في حالة صدمة. «أنت تعني أنّه لن يُفتح إلّا... إلّا...».

أتمّ نيســـتور جملتها: «من الجانب الآخر، نعم». ومشى عائداً إلى غرفة الهاتف.

الفصل 8

- نحّات السفن -



حدّق ريك وجايســون إلــى نماذج الســفن ومئات الأفكار تتصارع في رأسيهما. لم يكن ثمّة شكّ في ذلك: على تلك الطاولة، وفي وسط مصر القديمة، كان ثمّة نموذج لا لبس فيه للسفينة التي أبحــروا على متنها خلال العاصفة، داخل مغارة جرف ســالتون. وعلى كتاب يوميّات يوليسيس مور في غرفة البرج في فيلّا آرغو، تقبع نسخة مطابقة لسفينة عين نفرتيتي.

كان ثمّة قطعة أثرية من مصر القديمة في خليج كيلمور. وفي مصر القديمة ثمّة قطعة من... ممَّ تحديداً؟ ما كانت الميتيس على أيّ حال، وكم عدد الأشخاص الذين يعرفون بأمرها؟

قال ريك بتردّد عندما قامت المساعدة بتغطية النموذج بالقماش مجدّداً: «هذه سفينة غريبة... حقّاً... لم يسبق لي أن رأيت مثلها قطّ».

أجابــت المــرأة: «أجل... أعتقد أنّها ســفينة خياليّة حلم بها رئيس الكتبة المعظّم. وربّما لهذا السبب استغرق عمله عليها وقتاً طويلاً...».

قالت ماروك: «في الواقع، يقوم أبي بنسخها عن رسم».

حدّق إليها ريك وجايســون بذهول: «رسم؟ هل أنت واثقة؟ هل يمكننا رؤيته؟».

نظرت إليهما المســاعدة والتســلية بادية على وجهها. هتفت وهــي تســير إلى أحد الرفــوف على الجدار الخلفــي: «صديقاك فضوليّان للغاية!».

بعد قليل من البحث، سحبت صفحة طويلة من ورق البردي. «هذا هو الرسم الذي تتحدّث عنه ماروك». قالت ذلك وهي تفتحه.

داخل ورقة البردي كانت ثمّة صفحة من الورقة تحتوي على رسم للميتيس. كانت ورقة عادية جدّاً وحديثة جدّاً من أوراق الدفاتر التي يبدو أنّها مُزّقت من كتب يوميّات يوليسيس مور.

ما إن تعرّف إليها جايسون، حتّى هتف بحماسة: «لكنّ هذا من رسوم يو...!». لكن سرعان ما وضع صديقه يده على فمه وأسكته.

سألته المرأة: «هل تعرف الشخص الذي رسم هذه السفينة؟».

أجاب ريك بسرعة: «أوه، لا، لا... ما قصده صديقي أنّ الرسم... يُبهر العقول! يبهرها حقّاً!».

ابتسمت ماروك. «هذا رأينا نحن أيضاً. إنّه جميل، أليس كذلك؟».

عندما استدارت المصريّتان لوضعها في مكانها، سأل جايسون صديقه هامساً: «كيف انتهى الأمر بهذه الورقة هنا؟».

أجاب الصبيّ ذو الشعر الأحمر وهو يبتعد بضع خطوات: «لا أعرف ولا أريد أن أعرف، ربّما يجدر بنا الرحيل حالاً واللحاق بأختك، قبل...».

قاطعه جايسون قائلاً: «مهلاً لحظة...»، وتظاهر أنّه يتفحّص عدداً من أوراق البردي من الجانب الآخر من الغرفة، قبل أن يضيف بصوت منخفض: «أخبرتنا ماروك أنّ بيت الحياة كان يُستخدم

لتخزين الأشـياء وحمايتها... ألا تعتقد أنّ... المالك القديم...».

ابتسم جايسون وفهم صديقه على الفور ما الذي يدور في ذهنه.

قـال ريك: «هل تقصد... أنّ يوليسـيس مور جاء إلى هنا... لإخفاء شيء ما؟».

«فكّر في الأمر: ربّما أتى إلى هذه الغرفة بالذات وتحدّث مع رئيس الكتبة المعظّم! ربّما أخذ نموذجاً لسفينة عين نفرتيتي وترك رسـم الميتيس في المقابل. وهذا يفسّـر كثيراً من الأمور، ألا تظنّ ذلك؟ كسبب وجودنا هنا، على سبيل المثال».

«ماذا تعني؟».

«أعني أنّه... ربّما أرسلنا إلى هنا... لاستعادة ما خبّأه في مكان ما داخل المجموعة».

أومأ ريك برأسه موافقاً. «هذا منطقي حقّاً. هذا منطقي حقّاً... لولا أنّ المالك القديم لفيلّا آرغو لم يعد على قيد الحياة».

أجاب جايسـون: «هذا ما تقولـه!»، وعاد يفكّر بالضجّة التي تناهت إلى مسمعيه من غرفة البرج في المنزل.

قاطعتهما ماروك وهي تقترب من خلفهما: «بماذا تتهامسان؟».

أجاب ريك مبتسماً: «كنّا نتساءل عن أمر ما. لقد أخبرتنا من قبل أنّ كثيراً من الأشياء من جميع أنحاء العالم يتمّ إحضارها إلى بيت الحياة...».

«بالضبط».

«هل هذا يعني أنّه يمكن لأيّ شخص أن يترك شيئاً ليتمّ تخزينه هنا؟».

«بكلّ تأكيد. لا يتعيّن عليه ســوى تركه مع أحد المفهرســين، وإعطاء اسمه، ودفع عدد معيّن من الدبن، يختلف اعتماداً على ما يريد تخزينه وعلى مدّة التخزين». شرحت ماروك ذلك وهي ترتّب جديلتها على كتفها.

تابع ريك: «هذا يعني... إذا كنّا نعرف اسم شخص معيّن، هل تعتقدين أنّ ثمّة طريقة لمعرفة ما إذا كان قد ترك شيئاً ليتمّ حفظه هنا في المجموعة؟».

سألها جايسون: «هل يتعيّن علينا سؤال أحد المفهرسين؟».

أجابت مساعدة رئيس الكتبة المعظّم، التي كانت تصغي إليهم: «أوه، هذا ليس ضروريّاً... فكلّ الأسماء مكتوبة على ورق البردي ومؤرشفة على هذه الرفوف».

اقترب جايسون وريك من بعض الألواح الخشبية التي تحمل رمــوزاً هيروغليفيّة تحوّلت أمام أعينهمــا إلى أحرف معروفة من حروفهما الأبجديّة التي يمكنهما قراءتها.

توقفّا أمام رمز الحرف م.

قــال جايســون بصوت خافت: «مور... أعتقــد أنّه قد يكون مدرجاً هنا».

قالت المســاعدة: «هل تريد منّي مســاعدتك في البحث عن شيء معيّن؟».

أجاب جايسون، الذي سمع أجراس الإنذار تُقرع في رأسه: «في الواقع، كلّا... أعني، ليس بالشيء المهمّ، ولا نريد أن نضيِّع وقتك... من بعد إذنك، سنبحث بمفردنا، وسنعيد كلّ شيء إلى مكانه».

قالت المســاعدة مبتسمة: «بالطبع لديكما الإذن، فلتساعدكما ماروك». وابتعدت برشاقة مثل نسمة ربيع.

كانت الرفوف تحتوي على عدد لا يُحصى من لفائف البردي المغلّفة بأقمشة ثقيلة. احتوت كلّ منها على قائمة أسماء، مثل دليل الهاتف الحديث. لكن لقراءتها كلّها، توجّب عليهما إمســاك أحد طرفي البردي وفرده ببطء إلى أن يمتدّ بأكمله على الأرض. وكان كلّ بنــد مكتوباً بخطّ يدوي صغير ودقيق، يتضمّن اســماً، ويتبعه وصف موجز للأشياء التي أودعها صاحبها في المجموعة، بالإضافة إلى المبلغ الذي دُفع ليتمّ حفظها وكلمة مرور قصيرة.

بحســب ماروك، تشــير كلمة المرور إلى الكوّة التي حُفظت فيه الوديعة.

تــأوّه ريــك وهو يقرأ إحدى عبارات المرور، وقال: «أما كان بإمكانهم كتابة شــيء مثل رقم الكوّة 16,450...، بدلاً من: يفتّش الأحمق العالم بحثاً عن كأسين ليشرب نخباً؟».

لكنّه ســرعان ما فهــم أنّ هذه العبارات وُضعت لمســاعدة المفهرسين على حفظ المعلومات المتعلّقة بالفتحات. فحفظ قصّة قصيرة أسهل من حفظ رقم طويل.

لم يجدا في اللفائف الثلاث الأولى أيّ إشارة إلى يوليسيس مور. فبدأت الشكوك تساور جايسون وريك حول صحّة اعتقادهما.

كانا على وشــك الاستسلام، عندما وقع نظر ريك على بقعة داكنة في وسط لفافة البردي الرابعة.

هتف وقد عجز عن السيطرة على حماسته: «لقد وجدته!».

أشــار ريك بإصبعــه إلى حيث اعتقد أنّه رأى اســم المالك الســابق لفيلّا آرغو، مكتوباً بالهيروغليفيّة. لكن ســرعان ما سرت رعشة جليدية على طول عموده الفقري. فثمّة من حاول شطب هذا البند بالكامل. ذلك أنّ خطّاً طويلاً من الحبر الأســود غطّى جزءاً من الاسم وأعاق قراءة كلّ ما يتبعه.

تمتم جايسون: «هذا مستحيل...»، ثمّ رفع اللفافة بعناية ونظر إليها في الضوء: «لم يعد بالإمكان قراءة شيء... باستثناء... نعم... يوليســيس مــور وهذه الكلمة: خ... خــا... خارطة! خارطة! هل تستطيع قراءتها أنت أيضاً يا ريك؟ إنّها خارطة!».

حكّ ريك ذقنه مفكّراً. قد يكون... قد يكون جايســون على حقّ. المؤكّد أنّ من حاول شطب البند عن ورق البردي، أيّاً يكن ذاك الشخص، لم يكن يملك سوى القليل من الوقت للقيام بذلك،

لأنّه شطب البند على عجل، من دون أن يتمكّن من إخفاء الأحرف الهيروغليفيّة بالكامل.

يوليسيس مور: خارطة.

هذا كلّ ما بقي مقروءاً.

لكنّ ذلك كان أكثر من كافٍ بالنسبة إليهما ليفهما أنّه كان ثمّة بالفعل شيء مهمّ داخل مبنى المجموعة.

أعاد الولدان لفائف البردي إلى مكانها، وودّع الثلاثة مساعدة رئيس الكتبة المعظّم. عبرت ماروك الغرفة متوجّهة إلى مخرج بيت الحياة، وتبعها جايسون وريك.

عندما وصلوا إلى غرفة منخفضة السقف ذات أرضيّة داكنة، تمتدّ منها ثلاثة أروقة مختلفة، اختارت الفتاة ذاك الذي يحرسه تمثال رأسه مزخرف بما يشبه سماء مرصّعة بالنجوم.

سألها ريك: «إذاً أنت لا تعرفين حقّاً كيف نُظّمت هذه التماثيل والممرّات؟ أنا أعني، لا بدّ من وجود سبب لاختيارك هذا الرواق بدلاً من الآخر».

أجابت ماروك: «لأنّ هذه هي الطريق الصحيحة. إنّه ممرّ النجمة. لا تشغل فكرك عبثاً يا ريك، فترتيب هذه الأروقة هو من الأسرار التي يحافظ عليها المفهرسون بعناية بالغة...».

أصرّ ريك: «... المفهرسون الذين يستخدمون عبارات مرور

غريبة لتذكّر ما يبحثون عنه، مثل... بعد الامبراطور، اتبع النجمة... أو تقع الكوّة تحت النجمة!». ثمّ نظر إلى التمثالين اللذين يحرسان المخرجَين الآخرَين للغرفة وأضاف: «أو اسلك ممرّ الكاهنة الكبرى ثمّ انعطف عبر ممرّ البرج...».

قاطعه جايسون: «هل قلت البرج؟».

ألقى ريك نظرة عن كثب على التمثال الذي وصفه بالبرج. «نعم، برج! ماذا تسمّي ذاك إذاً؟ منارة؟ مبنى طويل ورفيع؟».

كرّر جايسون: «البرج، البرج...» وراح يفتّش في الرزمة التي كان ريك لا يزال يحملها على كتفه. «مهلاً لحظة...».

فتح دفتر يوليسيس مور، وقرأ بصوت عالٍ الملاحظة التي كتبها الرجل بجانب رسم مدينة بونت.

لإيجاد الاتّجاهات، ستحتاج إلى
الحظّ الجيّد ونجوم الحظّ.
ابحث عن الخارطة في البرج
تحت العصيّ الأربع.

«ألا يمكن أن تكون هذه عبارة مرور وضعها المفهرسون؟».

حدّقت ماروك إلى الدفتر بفضول: «ما هذا؟ أين عثرتما عليه؟».

كان جايسون وريك مستغرقَين في حديثهما فلم يسمعاها.

قال ريك: «ربّما بعدما ترك المالك القديم الخارطة في المجموعة...».

«... عاد إلى فيلّا آرغو و...».

«... ونسخ عبارة المرور الخاصّة برئيس الكتبة المعظّم في دفتر مذكّراته لكي لا ينساها».

«أو ربّما لأنّه اشتبه أنّ شخصاً ما حاول خداعه...».

«أجل، هذا ممكن».

التفتا إلى ماروك، التي علت وجهها تعابير التشكّك والتسلية.

«عمّ تتحدّثان بالضبط؟».

سألها جايسون: «هلّا اصطحبتنا لرؤية بيبي وميسيرينوس ثانية؟ نريد أن نعرف ما إذا كانت هذه الجملة تؤدّي بالفعل إلى إحدى الكوّات أم لا».

عقدت ماروك حاجبيها مجيبة: «بالطبع، لكن لا أعتقد أنّ هذا ممكن اليوم. ألم تلاحظا مدى انشغال الجميع؟».

«هذا صحيح... الفرعون...» هزّ جايسون رأسه، ثمّ نظر حوله وقال: «لكن ماذا لو كانت عبارة... ابحث عن الخارطة في البرج تعني أنّ علينا البحث هنا في هذا الرواق؟».

قال ريك متنهّداً: «لا أعتقد ذلك، يا جايسون... فهذه المصادفة غير محتملة برأيي».

لكنّ صديقه لم يسمع شيئاً ممّا قال، بل استدار لدخول ممرّ البرج قائلاً: «سأرجع فوراً، انتظراني هنا!».

هتف ريك وهو يتبعه: «مســتحيل! لا أنوي أن أدعك تختفي كما فعلَت أختك!».

سألته ماروك وهي تلحق بهما: «أيّ أخت؟».

في ممرّ البرج، بدأ ريك وجايســون يتفحّصان بعناية ويعدّان الرمــوز التي تميّز كلّ كــوّة. كان ثمّة صفّان من الكوّات على كلّ جانب: من جهة، كان الصفّ السفلي يحمل رمز القدح أو الكأس، والعُلــويّ رمزَ الســيف. أمّا من الجهــة المقابلة للممرّ، فكان ثمّة عملات معدنية وعصيّ.

هتف ريك: «عصيّ! علينا البحث عن أربع عصيّ!».

لم يكن ذلك صعباً. إذ لم يكن عليهما ســوى متابعة البحث حتّى العثور على الكوّة الرابعة على الجانب الأيمن.

«تبّــاً!» تأفّــف جايســون وهو ينظر حولــه. حتّى من دون أن ينحنــي، كان واضحاً أنّ كوّة العصيّ الأربع خالية تماماً. «بالفعل، يستحيل أن يكون الأمر بهذه السهولة».

واصل ريك البحث لمســافة أبعد في الممرّ وهو يعدّ بصوت عالٍ: «خمس عصيّ، ستّ، سبع، ثمان، تسع، عشر و... أوه، كلّا!»، ثمّ توقّف فجأة.

سأله جايسون: «ما الأمر؟».

«اعتقدت أنّني سأجد إحدى عشرة عصاً... لكن عوضاً عن ذلك، وجدتُ رسم صبيّ يتّكئ على عصا».

«وبعد ذلك؟».

تقدّم ريك أكثر، واختفى عند منعطف الممرّ.

تبعتهما ماروك مبتسمة. «لا يستطيع أحد أن يفهم شيئاً من هذا، باستثناء المفهرسين. فكما قلت لكما، إنّه سرّ!».

هتف ريك: «ثمّة امرأة تحمل عصا! ومن ثمّ رجل ملتح! ثمّ نصل إلى آخر الممرّ».

ناداه جايسون: «عد إلى هنا!».

عاد ريك راكضاً من آخر الممرّ، ورزمته تقفز على كتفه. قال وهو يلهث: «لهذا السبب ثمّة اثنتان وخمسون كوّة في كلّ رواق!».

«لم أفهم...».

حاول ريك أن يستعيد أنفاسه وهو يشير إلى الكوّات. «أنت تعرف شكل أوراق اللعب، أليس كذلك؟ تضمّ أرقاماً من واحد إلى عشرة... وبعد ذلك تأتي بطاقات الصور، أي القاشوش والملكة والملك. الأمر مشابه هنا! من عصا إلى عشر عصيّ، ومن ثمّ الصبيّ الصغير، والمرأة، والرجل الملتحي. فبقيّة الرموز تتكوّن من صبيّ وامرأة ورجل أيضاً. لقد تأكّدت من ذلك».

عندما سمع جايسون هذا التفسير، نظر إلى رموز الكوّات في ضوء جديد.

«الكؤوس بدلاً من القلوب... السيوف بدلاً من البستوني... والعصيّ بدلاً من السباتي و... قطع معدنية بدلاً من الديناري».

قال ريك ضاحكاً: «بالضبط!».

سأل جايسون ماروك: «إذاً، أهذا هو سرّ رموزكم الكبير؟ أوراق لعب؟».

أجابت: «لم أفهم كلمة واحدة ممّا قلت...».

«هل تقصدين أنّك لم تلعبي الورق من قبل؟».

هزّت الفتاة رأسها نافية. «أنا لا أعرف حتّى عمّ تتحدّث».

«ماذا تلعبون إذاً، على كلّ حال؟».

«نحن نلعب السينيت أو الأستراغال».

تبادل ريك وجايسون نظرة استغراب، ثمّ عاد الثلاثة إلى الغرفة التي أتوا منها.

قال ريك بصوت خافت: «أصبح كلّ شيء واضحاً الآن يا جايسون. لم يسبق لماروك أن لعبت الورق من قبل، ربّما لأنّه لم يكن قد تمّ اختراع بطاقات الورق بعد. هممم... أمّا ترقيم الكوّات بأرقام ورق اللعب، مع أنّها لم تكن قد اخترعت بعد... فهذه أحجية مثيرة للاهتمام برأيي». وقف الصبيّ أمام مدخل ممرّ البرج، ونظر إلى التمثال الذي يحرسه. حكّ رأسه متسائلاً.

«لكنّ المشــكلة لا تزال قائمة. حتّى لو اكتشــفنا أنّ الكوّات مرقّمــة مثل بطاقات اللعب... فمــا هو دور التماثيل بالضبط، في كلّ ذلك؟».

اقترحــت عليهما ماروك التي بدأت تفقد صبرها: «ما رأيكما بــأن ننطلق؟». في تلك اللحظــة، اخترق صوت الأبواق المفاجئ صمت المبنى. فصاحت الفتاة عندما سمعته: «أسرعا!»، وأمسكت بأكمام صديقيها.

«ماذا يجري؟».

«القاعــدة رقم 19: الطــوارئ! عندما يُنفخ في الأبواق، يتعيّن على الجميع مغادرة مبنى المجموعة على الفور!».

على مســافة غير بعيدة عن الأولاد الثلاثة، عند مدخل بيت الحياة، استغرق شخصان في جدال حامٍ.

«هذا صحيح، قد تكون خارطة، ســيّدتي... ولكن...»، ابتسم بيبي، على أمل أن يأتي معلّمه لإنقاذه. مع ذلك، بدا أنّ ميسيرينوس قد اختفى وســط الحشــد الفوضوي عند المدخــل الكبير لمبنى المجموعة.

«وهي موجودة هنا، أليس كذلك؟». أصرّت عليه المرأة الواقفة أمامه بنبرة تنمّ عن نفاد صبر، وهي تطوي أكمام قميصها المزركش بنقش أكفّ النمر.

تمتم بإحراج واضح: «أوه، بالتأكيد... بطبيعة الحال... المشكلة الوحيدة أنّه... نظراً للقاعدة رقم 4...».

لم تمنحه أوبليفيا نيوتن الفرصة للمتابعة. فقد سمّرت بيدها ذات الأظفار الطويلة الأرجوانية يد بيبي على زاوية الطاولة. «أيّ مشكلة...؟».

فتح المفهرس عينيه دهشة وهو يحاول سحب يده، لكن من دون جدوى. فقد باتت أصابعه حبيسة في قبضة المرأة الغريبة.

«حسناً... في الحقيقة من المستحيل في هذه اللحظة الد-د-د...».

أنهت المرأة جملته قائلة: «الدخول؟».

«أجل، امهم، تماماً... نحن بانتظار وصول الفرعون وقد... وقد... تلقّينا أمراً بتعليق جميع الاس-الاس-الاستشارات حتّى انتهاء زيارة الحاكم للمجـ-مجـ-مجموعة...».

ازداد الضغط على أصابعه، وقالت أوبليفيا بصوت منخفض وجادّ: «لا يبدو أنّك تفهم».

أخذ بيبي يئنّ بإحراج: «أنت تؤلمينني...».

اعتدلت المرأة فجأة وأفلتت قبضتها، ثمّ خلعت شال الفراء ووضعته على الطاولة بينهما. «هل تقصد أن تقول إنّني قمت بكلّ هذه الرحلة عبثاً؟ قطعت كلّ هذه المسافة... لأسمعك تقول إنّه من غير الممكن الدخول اليوم؟ لا تكن سخيفاً!».

أبعد بيبي يديه عن المعطف، فدفعته المرأة بين يديه.

تمتم المفهرس: «أنا... لا... لا... شكراً لك. أنا أفهم وأؤكّد لك أنّني سأبذل قصارى جهدي لإدخالك... وهذا بلا شكّ فراء رائع... لكن...».

أصبحت عينا أوبليفيا نيوتن مغناطيسيّتين. «أنا أحتاج إلى الدخول. أريد العثور على تلك الخارطة! أنا.. بحاجة.. إلى.. العثور.. على.. تلك.. الخارطة».

بدا بيبي على وشك الاستسلام. «أنا... أنا... أنا لست مخوّلاً. أنا مجرّد متدرّب و... بالإضافة إلى ذلك... قريباً ستُطبّق... القاعدة رقم 19. الأمر واضح... صدّقيني... علينا أن نحرص على إخراج كلّ من هم داخل مبنى المجموعة... وألّا... وألّا نسمح لأيّ شخص آخر بالدخول».

«إلى متى؟».

«إلى أن تنتهي زيارة الفرعون».

قالت المرأة وهي تميل إلى الأمام: «أنا لا أريد سوى إلقاء

نظرة، مجرّد نظرة سريعة»، ثمّ أمسكت بريشة الطاووس المغروسة بقبّعة بيبي وسوّتها فوق رأسه. ثمّ همست في أذنه بنبرة رقيقة: «علاوة على ذلك، أنا أعرف كيف أكافئ من يتعاملون معي بلطف، وذلك بطرق عديدة... وبسخاء كبير...».

تجمّد بيبي في مكانه، ولكن في اللحظة التي أوشك فيها على الاستسلام أخيراً، تردّد صدى الأبواق عبر الغرفة.

بسحر ساحر، انقسمت ريشة الطاووس إلى قسمين. فتحرّر بيبي من قبضتها، وترنّح إلى الخلف، وفي تلك اللحظة بالذات، رأى ميسيرينوس يشقّ طريقه عبر الحشد عند المدخل. قال لاهثاً: «أنا آسف، ولكن لا يمكنك الدخول! هذا ممنوع!».

احمرّ وجهه خجلاً وهو يستدير على عقبيه، ويسرع لينضمّ إلى معلّمه.

وقفت أوبليفيا نيوتن هناك ممسكة بنصف ريشة الطاووس، ثمّ رمتها على الأرض. سمعت صوت الأبواق مجدّداً ورأت جميع زوّار بيت الحياة يُقتادون إلى الخارج.

همست وهي تشدّ على شفتيها إلى أن شحب لونهما: «لا بدّ من وجود طريقة...». نظرت إلى الأسفل إلى أصابع قدميها، وأظافرها المطليّة بطلاء مرقّط بجلد النمر، وتأفّفت عاجزة. لا يمكنها الانتظار. ومن المؤكّد أنّها لا تنوي الاستسلام بهذه السهولة.

في تلك اللحظة، رأت شـــاباً يبتســـم لها وهو يتّكئ على أحد الأعمدة على بعد خطوات قليلة. بدا وكأنّه يضحك عليها تقريباً.

سألته بحدّة: «ماذا تريد؟».

لم يتغيّر تعبير الشابّ. كانت عيناه تلمعان بنظرة خبث وانعدام تامّ للضمير. ابتعد ببطء عن العمود، وتقدّم نحوها متجاهلاً تماماً الحشد الصاخب من حولهما.

قال: «سمعت أنّك تبحثين عن شيء داخل المجموعة...».

«هذا ممكن».

«سمعت أيضاً أنّك تبحثين عن خارطة».

«ربّما أخطأ سمعك».

«أنـــا أعـــرف دكّاناً، خـــارج المدينة، يبيعون فيـــه العديد من الخرائط...».

انتزعت الآنســـة نيوتن فراءها بحنق. «شـــكراً للمحاولة، أيّها الوســـيم، لكنّنـــي لا أعتقد أنّ دكّانك يملـــك الخارطة التي أبحث عنها. إذ لا يوجد منها سوى نسخة واحدة فقط...». وأشارت إلى أروقة بيت الحياة مضيفة: «وهي موجودة هناك، مع الأسف».

تركها الشابّ تمرّ، وفاح خلفها عطرها القويّ، ثمّ أضاف: «في هذه الحالة، أنا أعرف طريقة للدخول إلى هناك والبحث عنها، هذا إن كنت تعرفين مكانها».

قيّمته أوبليفيا بنظرة.

انطلقـــت الأبواق مجدّداً، مكرّرة الأمر بإخلاء المبنى. فجأة، في مكان ما في الحفرة المركزية الكبرى، سقط شيء ما وتحطّم. فسُـــمعت صرخات وضوضاء، تبعها مزيد من النفخ في الأبواق. وركض عدد من الحرّاس لمعرفة ما حدث.

كانت تلك فرصة مثالية للتسلّل إلى داخل مبنى المجموعة.

سألت المرأة الشابّ: «هل يمكنك اصطحابي إلى هناك فوراً؟».

اتّســعت ابتسامته مجيباً: «وهل يمكنك أن تدفعي لي فوراً... وبسخاء؟».

الفصل 9

- حدس -



بـــدأ الأطفال بالجري. وصلوا إلى الســـلّم الــذي يلتفّ إلى الأسفل وصولاً إلى ممرّ هائل كان مهجوراً تماماً. بمجرّد وصولهم، توجّهوا عبر ممرّ مظلم تماماً، ثمّ وصلوا إلى غرفة كبيرة ذات سقف مزيّن بالنجوم ونافذة تطلّ على الحدائق.

نُفخت الأبواق مجدّداً، للمرّة الثالثة أو الرابعة، فضاعفوا من سرعتهم.

فجأة، توقّف ريك في مكانه.

صاحت ماروك: «أسرِع! علينا الخروج من هنا! الفرعون على وشك الوصول!».

قـــال ريك، وهو ينظر حوله: «مهلاً لحظة...». لم يكن متعباً، بـــل في الواقع، أنعشـــه الجري. فتماماً كمـــا يقول والده دائماً: إن لـــم تعرف ماذا تفعل، فاركض. فهذه أفضل طريقة لتزويد دماغك ببعض الأوكسجين.

بالنسبة إلى ريك، لم يكن الركض يعني الهرب، بل يعني عدم إضاعة الوقت، والتفكير لحلّ الأمور.

في الغرفة ذات السقف المرصّع بالنجوم، وضع الصبيّ رزمته على الأرض، وأخرج قاموس اللغات المنسيّة.

اندفع إليه جايسون وهو يلهث: «ماذا تفعل؟».

«إنّني أبحث عن كلمة، أمّا أنت فتولّ أمرها».

أومأ جايسون برأسه موافقاً وفتح ذراعيه لكي لا تتمكّن ماروك من رؤية الكتاب.

قـال لها لصرف انتباهها: «اسـمعي يا مـاروك! هل يمكنك أن تحفظي سـرّاً؟ في الحقيقة، نحن لم نأتِ إلى هنا بالأسـطول الملكي».

نظـر ريـك حوله للتأكّد مـن أنّ أحداً لا يراقبهـم، ثمّ فتح القامـوس وبـدأ يفكّـر. «ما الذي أبحث عنـه؟». وقع نظره على التمثالين القريبين منه. كان أحدهما لرجل يتدلّى رأساً على عقب مـن شـجرة. أمّا الآخر، فبدا أنّه يصـوّر رجلاً ميتاً. تأمّل الفهرس الخلفي للقاموس بحثاً عن مفتاح. بحث تحت عنوان «لغات مصر القديمة»...

في هذه الأثناء، واصل جايسـون حديثه المراوغ مع ماروك: «أخبرناك أنّنا وصلنا إلى هنا مع الأسطول لأنّك ما كنتِ ستصدّقيننا. لكننا في الواقع...». نظر إلى الخلف ليرى أين أصبح صديقه، ثم تابـع: «جئنـا إلى هنا على متن سـفينة أخرى، ولا نعرف بالضبط سبب وجودنا هنا. لكن يمكنك مساعدتنا. أنا أطلب منك فقط أن تثقي بنا... قليلاً بعد... من فضلك...».

عضّت ماروك على شفتها، ثمّ حاولت استراق نظرة من فوق كتف جايسون.

«ماذا يفعل ريك؟ وما هذا الشيء الموجود في حضنه؟».

قال ريك بطريقة آلية وهو يتصفّح الكتاب: «إنّه قاموس اللغات المنسيّة...».

بدأت ماروك بالاحتجاج: «هلّا شرحتما لي ماذا...».

قال لها جايسون مبتسماً: «يحاول ريك أن يعرف كيف تعمل شيفرة المجموعة. حتّى نتمكّن من العثور على... الخارطة. خارطة العصيّ الأربع».

هزّت ماروك رأسها بقوّة. «لكن لا يمكنكما البحث عنها الآن! يجب علينا الخروج من هنا!».

قال ريك، وهو يقلّب الصفحات: «إذا خرجنا الآن... فقد لا تُتاح لنا الفرصة للعودة مجدّداً».

«لكن لماذا؟ لماذا لا يمكننا العودة غداً؟».

هزّ جايســون رأسه مجيباً: «لا يمكننا البقاء هنا طويلاً، يجب علينا العودة إلى جوليا».

«جوليا؟».

«إنّها أختي. وقد... بقيت بمفردها. لكن قبل أن نعود للعثور عليها، علينا القيام بشيء هنا».

«وما هو؟».

«لست متأكّداً بالضبط، لكنّه مهمّ».

«لكن من أرسلكما؟».

«نحن لا نعرف حقّاً. لا نملك ســوى دليل صغير اكتشــفناه

فــي غرفــة أبيــك. هل تذكرين الاســم الذي كنّــا نبحث عنه في اللفائــف؟ إنّــه... إنّه صديق لنا. وقــد يكون ثمّة من يحاول منعنا من مساعدته...».

«من؟».

أجاب جايسون: «لا نعرف».

قالت ماروك بعصبيّة: «ما الذي تعرفانه إذاً؟».

هزّ جايسون رأسه وبدأ يضحك. «في الحقيقة، لا نعرف شيئاً يــا مــاروك. لكن يجب أن تصدّقيني. فمجرّد التفكير أنّنا منذ بضع ساعات فقط كنّا...».

اهتزّت جدران بيت الحياة بدويّ الأبواق مجدّداً.

أمسكت الفتاة بيد جايسون وشدّته نحوها.

«لا أدري أين كنتما قبل بضع ساعات، ولكن إذا لم نتحرّك، فســوف نجد أنفســنا قريباً في مأزق خطير. فمن الممنوع تجاهل نداء الحرس الملكي».

هتف ريك: «وجدتها!».

«ماذا؟».

«وجدتها».

فــي غرفة الجلوس في منزل كليوباترا بيغلز، تثاءب مانفريد، ثمّ رمى مجلّة تطريز أخرى في الهواء وتمطّى على كرسيّه.

كانت الآنســة بيغلز لا تزال تنام بســلام على الأريكة، فمها مفتوح على وســعه، بينما تجوّلت قططها حول مانفريد مثل أسود حول مروّضها.

أبعدها بذراعه قائلاً: «وحوش!».

نهض وذهب إلى المطبخ. لم يجد في الثلّاجة سوى الخضار وبسكويت هشّ بالشوكولاتة. فتناول القليل منها، ثمّ رمى ما بقي للقطط.

وجــد في وعــاء من الصفيح مجموعة متنوّعة من الســكاكر القديمة، وفي آخر، بسكويت بالزبدة لكنّه صلب كالصخر.

وجد فضلاً عن ذلك مجموعة من الخزف الصيني المزخرف بالأزهــار، وصينيّتيــن مزخرفتين بالأزهار، وســتارتين مزخرفتين بالأزهــار، وبالإضافــة إلى كلّ ذلك، وعاء كبيراً على شــكل حبّة قرنبيط.

لــم يجــد مانفريد ما يثير اهتمامــه، فبحث على رفوف غرفة الجلــوس. بعض التحف الصغيــرة، تمثال صغير لطفل بجناحين، أربعة أعداد من مجلّة المختار، كتاب لا يزال بغلافه، وعلبة أخرى من القصدير، لكنّها مليئة بالدبابيس.

عندما وخز إصبعه، بدا له أنّ القطط تضحك عليه.

صاح بها: «ابتعدي! ابتعدي أيّتها الوحوش!».

وضع طرف إصبعه المؤلم في فمه وتحقّق من الساعة.

كانت السيّارة متوقّفة على بعد أمتار قليلة من الباب الأمامي. وكان معطفه الواقي من المطر، المعلّق على جهاز التدفئة، قد جفّ للتوّ.

ارتداه، ثمّ فتح الباب وخرج. عندما بدأ يحرّك السيّارة إلى الخلف، وجد قطط الآنسة بيغلز مجتمعة عند المدخل، تحدّق إليه.

همس وهو يصرّ على أسنانه: «كم أكره القطط...».

الفصل 10

- حلّ اللغز -



قفز جايسون وركع بجانب ريك. على صفحة قاموس اللغات المنسيّة كان ثمّة مخطّط لرسومات مرقّمة من 0 إلى 21.

تمتم ريك: «أوراق الأركانا الكبرى من بطاقات التارو... لماذا لم أفكّر بذلك من قبل؟».

أوضح القاموس أنّ بطاقات التارو هي من أقدم أوراق اللعب في العالم، وأنّ جميع البطاقات الحديثة مستمّدة منها. اعتقد البعض أنّ بطاقات التارو تصوّر ألواح المعرفة التي علّم من خلالها الإله المصري تحوت الإنسان أسرار الكتابة والحساب والموسيقى والألعاب. لهذا السبب، كان كلّ جزء من المجموعة يسمّى «أركانا»، أي شيء غامض أو محيّر.

تابع ريك القراءة بنهم: «تقسَّم مجموعة بطاقات التارو إلى 52 بطاقة أركانا صغرى و22 بطاقة أركانا كبرى. وتُقسَّم بطاقات الأركانا الصغرى الـ52 إلى أربع مجموعات: الكؤوس والعملات والسيوف والعصيّ... تماماً مثل الكوّات الموجودة في الأروقة».

تابع جايسون بصوت عالٍ: «أمّا الأركانا الكبرى... فتتألّف من 22 بطاقة تصوّر شخصيّات ذات معانٍ غير معروفة. بطاقة أركانا الكبرى رقم 21: العالَم. بطاقة أركانا الكبرى رقم 12: الرجل المعلّق. بطاقة أركانا الكبرى رقم 13: الموت!».

كان تمثالا الرجل المعلّق والموت يحدّقان إليهم من غرفة النجوم.

ابتسم ريك وهو ينهض. «لا شكّ أنّ هذا هو السبب وراء اعتبار الرقم 13 رقماً مشؤوماً. حاوِل قراءة جملة يوليسيس مور مجدّداً».

فتح جايسون دفتر المذكّرات وأعاد قراءة الجملة ببطء.

قال ريك وهو يفكّر ملياً ويدقّق في الرسم البياني في القاموس: «إذاً... يجب علينا الآن...».

ألحّت ماروك وهي تلتفت إلى الأروقة الخالية: «علينا الجري والخروج من هنا!».

لم يجبها ريك، بل حاول التركيز.

«قال ميسيرينوس إنّ المجموعة مقسّمة إلى 22 قسماً، وكلّ قسم إلى 22 غرفة، وكلّ غرفة إلى 22 رواقاً. اثنان وعشرون... هو عدد بطاقات أركانا الكبرى».

«لا أدري حقّاً ما الذي تتحدّثان عنه يا صديقيّ، ولكن...».

قرأ جايسون جملة المذكّرات مجدّداً ثمّ صاح قائلاً: «مهلاً يا ماروك! إذا أردنا العثور على خارطة العصيّ الأربع، فينبغي أن تمثّل العصيّ الأربع رقم الكوّة. نحن نعرف أنّ الخارطة موجودة في البرج...».

قرأ ريك: «البرج: بطاقة أركانا الكبرى رقم 16. بحسب العبارة، للعثور عليها، فنحن بحاجة إلى الحظّ الجيّد ونجوم الحظّ...».

أغلق ريك القاموس فجأة. «الحظّ هو البطاقة رقم 10. والنجم

هو البطاقة رقم 17. بات الأمر واضحاً الآن! في المرّة السابقة، عندما سلكنا ممرّ البرج، كنّا على خطأ!». ثمّ اقترب من جايسون وماروك، وعرض عليهما ما اكتشفه للتوّ. «الخارطة موجودة في ممرّ البرج، ولكن انطلاقاً من غرفة النجم، في قسم الحظّ... كوّة العصيّ الأربع. هذا سهل، أليس كذلك؟».

فغرت ماروك فاها دهشة.

انفجر جايسون ضاحكاً وقال: «لا تقلقي، هكذا هو ريك. المهمّ أنّه اكتشف حلّ اللغز».

ويبدو حقّاً أنّ ريك قد فهم المسألة. نظر حوله وقال: «إذاً، ما علينا الآن سوى معرفة المكان الذي نقف فيه. هل تعرفين يا ماروك؟».

تمتمت بإجابة، ثمّ كرّرتها بصوت أعلى: «يجب أن نكون هناك تماماً، في قسم الحظّ...».

هتف جايسون: «هذا عظيم! لا شكّ أنّنا محظوظون بالفعل! والآن، إلى أين؟».

توجّه الفتى ذو الشعر الأحمر نحو الممرّ الذي يحرسه تمثال الموت. بطاقة أركانا الكبرى رقم 13.

نظر إلى سقف الغرفة، الذي كان مطليّاً بنجوم ذهبية.

«إن كانت هذه هي غرفة النجم، فلا شكّ أنّنا قريبون جدّاً. فما علينا سوى العثور على ممرّ البرج، أي علينا الذهاب...».

نظر جايسون حوله بقلق.

أمّا ماروك فهزّت رأسها محتجّة.

قال ريك: «... من هنا على ما أظنّ».

عندما سمعت الفتاة المصرية ذلك، ضربت الأرض بقدمها وقالت: «كلّا! يجب أن نسلك الاتّجاه المعاكس تماماً، نحو المخرج! وذلك قبل ظهور الحرّاس...».

نظر إليها ريك وجايسون متوسّلَين.

قال أحدهما: «أرجوك».

وأضاف الآخر: «قد يكون هذا مهمّاً».

ابتلعت ماروك ريقها بصعوبة. «لم تخبراني حتّى الآن سوى مجموعة من الأكاذيب، فلماذا أصغي لكما؟».

قال ريك بابتسامة متوسّلة: «لأنّه، على الرغم من كلّ شيء، تعتقدين أنّنا... طيّبان؟».

تنهّدت ماروك قائلة: «حسناً، سأرافقكما... ولكن فقط حتّى نسمع الأبواق تدوي مجدّداً. مفهوم؟».

بدأ الأولاد بالجري، وتردّد وقع نعالهم على الأرض تحت أسقف المبنى الخالي، ليختلط بإيقاع أنفاسهم المتسارعة. وصلوا، يتقدّمهم ريك، إلى ممرّ يحرسه تمثال رجل يشبه ملاكاً، وآخر يصوّر شيطاناً مجنّحاً، وأخيراً تمثال على شكل برج. دخلوا مسرعين،

يتقدّمهم جايسـون، وبدأوا بعدّ أرقام الكوّات بصوت عالٍ. «عصا واحدة، اثنتان، ثلاث... أربع! هنا! ها هي!».

توقّفـوا أمام كوّتَين كبيرتَين. كانت كوّة العملات الأربع، في الأسـفل، مليئة بـأوراق البردي والمخطوطـات. أمّا كوّة العصيّ الأربع في الأعلى، فبدا أنّ محتوياتها تقتصر على شِباك عنكبوت ضخمة.

أخرج ريك آخر عقب شمعة كان في الرزمة. وراقبته ماروك بدهشة وهو يشعل عود كبريت ويضيء الشمعة ويعطيها لجايسون. قـال لصديقـه: «أنت انظر!». ثمّ شـبك يديه معـاً لكي يرفع بهما جايسون إلى الأعلى حتّى يتمكّن من النظر إلى داخل الكوّة العلوية.

«كنْ حذراً!» همسـت ماروك بذلك بينما مال جايسـون إلى الأمام إلى داخل الكوّة، حاملاً الشمعة أمامه مباشرة.

قـال ريك وهـو يئنّ من ثقل وزنه: «أسـرِع... لا أعرف كم يمكنني حملك...».

قال جايسون وهو ينظر جيّداً: «لا أرى... شيئاً...».

بدت الكوّة خالية منذ سنوات، خالية تماماً. لكن حين أوشك جايسـون أن يطلب من ريك إنزاله، لمح صفحة صغيرة من ورق البردي مدسوسة في الزاوية في الخلف. فمدّ يده وانتزعها. «بينغو!».

في تلك اللحظة، أمسكت ماروك بكتف ريك وهمست بقلق: «لقد عثروا علينا! فلنهرب!».

اختلّ توازن ريك وسقط جايسون فوقه، وهو ما زال ممسكاً بورقة البردي. هربت ماروك عبر الممرّ. وبالكاد تمكّن ريك وجايسون من النهوض عندما سمعا الخطوات وهي تقترب.

همس ريك مشيراً إلى كوّة العملات الأربع: «أسرِع! فلنختبئ هناك!».

اندسّ في الداخل مع رزمته، واختبأ بين لفائف البردي.

حذا جايسون حذوه، بينما اقترب وقع الخطى أكثر.

«كم من الوقت سيستغرق هذا؟» تساءلت أوبليفيا نيوتن بحنق وهي تتبع الشابّ عبر رواق آخر، بدا مطابقاً لجميع الأروقة السابقة.

قال بازدراء: «كم أنت قليلة الصبر يا امرأة. وشديدة الصخب أيضاً... إذا أردتِ العثور على الخارطة، فيجب أن تتحلّي بالصبر وأن تبقي فمك مغلقاً».

أجابته أوبليفيا بحدّة: «ألم يعلّمك أحد اللباقة؟».

توقّف الشابّ في وسط غرفة النجم.

فوقهما، كان السقف مرصّعاً بالنجوم.

«أصغي إليّ جيّداً: لو أنّ أحدهم علّمني اللباقة، ما كنت هنا أساعدك في التسلّل عبر هذه الغرف لسرقة خارطة، أليس كذلك؟».

رمقته أوبليفيا شزراً، غير واثقة ممّا إذا كان يجدر بها الردّ أم لا.

منذ أن دخلا مبنى المجموعة، وبدءا بالسير صعوداً وهبوطاً عبر الممرّات المنحدرة، الأمر الذي كان شاقّاً بصندلها ذي الكعب العالي، لم يكفّ الشابّ عن معاملتها بوقاحة.

«اسمع أيّها الشابّ! أنا لم أدفع لك لتعاملني بهذه الطريقة».

«وأنا لم أوافق على إحضارك إلى هنا لكي يقبض علينا الحرّاس. إذا لم تلزمي الصمت، فإنّهم سيعثرون علينا. وأنا أؤكّد لك أنّ التعفّن في زنزانة رطبة لتأكلك الجرذان لن تكون تجربة ممتعة».

جمدت المرأة لمجرّد التفكير في الجرذان.

«ليست لديّ أيّ نيّة لأكون سجينة في زنزانة...».

أجابها: «إذاً يبدو أنّنا بدأنا نفهم بعضنا. الزمي الصمت واتبعيني. لقد أوشكنا على الوصول».

دخلا ممرّ البرج ووصلا إلى كوّة العصيّ الأربع.

قال الشابّ: «ها هي».

دفعته جانباً بنفاد صبر، وسألته بصوت ينمّ عن لهفتها: «أيّ منها؟ تلك؟». وأشارت إلى الكوّة التي تعجّ بلفائف البردي.

«كلّا، بل الأخرى».

وقفت المرأة على رؤوس أصابعها، ورفعت كعبيها العاليَين

جدّاً. هتفت: «أخيراً!»، ثمّ أطلقت ضحكة صاخبة وأضافت: «انتهى أمرك يا يوليسيس! لقد وفت أوبليفيا نيوتن بوعدها!».

في تلك اللحظة، سمعت صوتاً غريباً، يشبه صرخة مكتومة.

سألت أوبليفيا: «ماذا قلت؟».

«لم أقل شيئاً».

هـزّت المرأة رأسـها. «هـذا غريب... ظننت أنّني سـمعت شيئاً...».

نظر الشاب المصري حوله بعصبيّة.

«خذي ما تريدين بسرعة. علينا الخروج من هنا!».

تمتمـت وهي تقف مجدّداً علـى رؤوس أصابعها للنظر إلى داخل الكوّة: «لقد انتظرت هذه اللحظة منذ سنوات... ثمّ أخرجت قدّاحة وأضاءت الشعلة بنقرة واحدة.

وقف الشابّ هناك يحدّق إلى ذلك الشيء بذهول.

تمتمت الآنسـة نيوتن بعد بضع ثوانٍ: «هذا مستحيل... لا... لا... لا يوجد شيء هنا! لا يوجد سوى عقب شمعة!».

وبّخها الشابّ: «هسّ! سيُهرع حرّاس الفرعون إلى هنا بسببك!».

امتقع وجه المرأة بلون قرمزي ناري.

كرّرت وهي تلقي بعقب الشـمعة على الأرض: «ليسـت هنا! الخارطة ليست هنا!».

همس دليلها غاضباً: «أنا راحل...».

لكنّ أوبليفيا نيوتن قفزت كالنمر وأمسكت به من ذراعه قبل أن يتمكّن من الابتعاد.

«قف مكانك أيّها الشابّ. أين تظنّ نفسك ذاهباً؟ لقد خدعتني، أليس كذلك؟ إلى أين أخذتني؟».

أجابهــا بحدّة محاولاً تحرير ذراعــه: «إلى حيث طلبت منّي اصطحابك...». غير أنّ قبضة أوبليفيا كانت قويّة وواثقة.

وبّخته وهي تدفعه على أحد الجدر مثل كيس من البطاطس: «لا تحاول خداعي أيّها الشرّير الصغير! لماذا لم أجد خارطة خليج كيلمور هنا؟ أجبني!».

تحرّكت لفائف البردي في الكوّة الأخرى.

صاح الشابّ المصري: «لا أدري! لا أعرف شيئاً عن... خليج كيلمور... أنا... أحضرتك إلى حيث أردت...».

حدّقت أوبليفيا نيوتن إلى عينيه مباشرة، ولم تعرف ما إذا كان يجدر بها تصديقه.
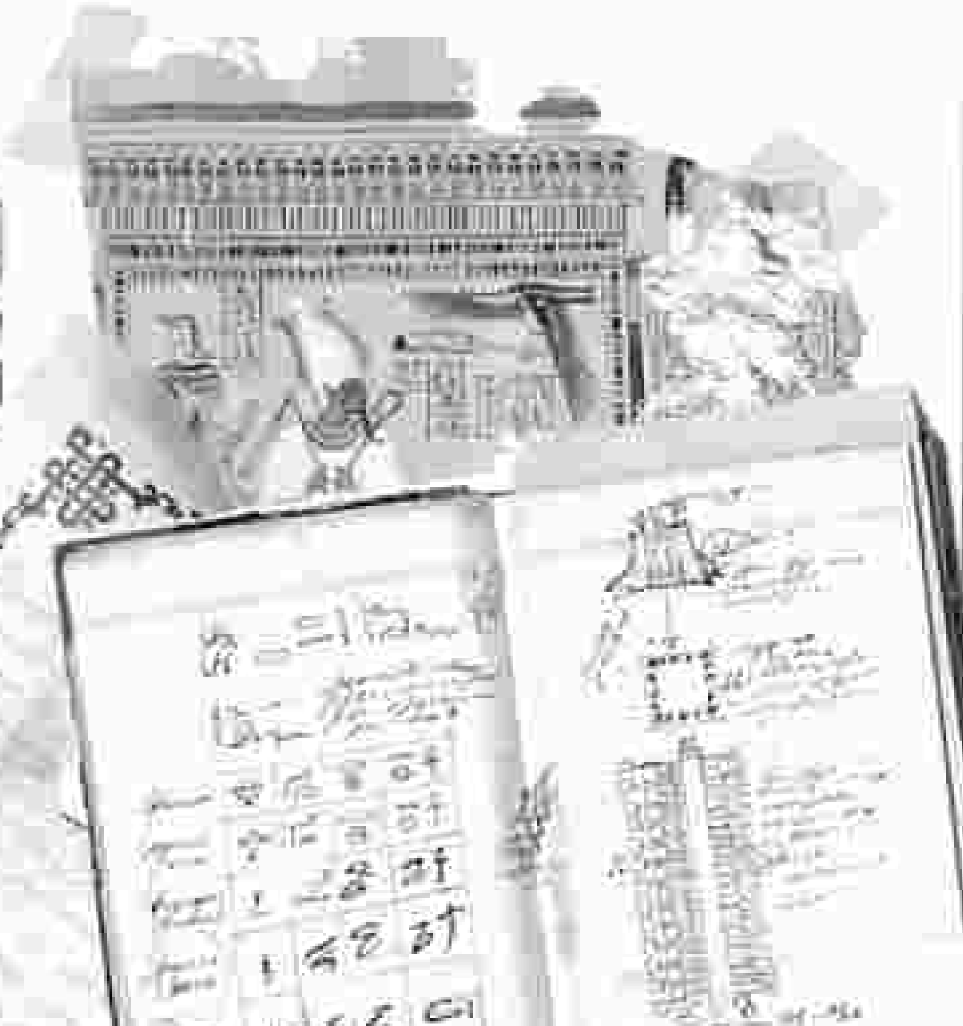
في تلك اللحظة، سمعت وقع خطوات آتية من بعيد، ترافقها قعقعة الدروع البرونزية والرماح الطويلة التي يتســلّح بها الجنود. إنّهم الحرّاس.

همس الشابّ: «أعتقد أنّهم سمعونا...».

تخيّلت أوبليفيا نيوتن سجناً مليئاً بالجرذان، فأفلتت قبضته.

همســت وهي تنحني للمّ عقب الشمعة عن الأرض: «حسناً، أريد أن أصدّقك. والآن، أخرجني من هنا».

الفصل 11
- الحقيقة المخفيّة -



جـاء حرّاس الفرعون وهم يركضون. فتّشـوا الممرّ بأطراف رماحهم، وتحدّثوا بسـرعة في ما بينهم، ثمّ تفرّقوا وانطلقوا بحثاً عن الدخلاء. وسرعان ما تلاشى وقع خطواتهم واختفى تماماً.

بقي جايسـون وريك مختبئَين داخل الكوّة. واسـتغرقا وقتاً طويلاً قبل أن يجازفا بإزاحة ورقة البردي التي أخفتهما عن الأنظار لإلقاء نظرة على الرواق.

كان الجميع قد اختفوا.

تسلّل جايسون بصمت من الكوّة، وتبعه صديقه.

نظـرا حولهما في محاولة للعثور على ماروك، لكن يبدو أنّها اختفت في متاهة الممرّات المكسوّة بالغبار.

همس ريك: «هل سمعت ذلك أنت أيضاً، أم أنّه كان حلماً؟ كيف وصلت أوبليفيا نيوتن إلى هنا؟».

ثمّ تنشّـق الهواء العابق بعطر جعله يتذكّر أوّل مرّة التقى فيها بأوبليفيا، عندما كادت أن تدهسـه بسـيّارتها الطويلة على الطريق المؤدّية إلى فيلّا آرغو.

أشار جايسون إلى لفافة البردي التي وجدها في الكوّة، وهمس لصديقه: «بالكاد سبقناها إليها».

فتح اللفافة، واكتشـف بداخلها رسالة قصيرة مكتوبة بالرموز نفسها المستخدمة للملاحظات التي عثرا عليها في الصندوق الصغير بجانب الجرف، والرزمة البريدية التي أعطاهم إيّاها كاليبسو.



همس ريك عندما رآها: «هذه كتابات هيروغليفيّة من قرص فايستوس!».

«يبدو أنّ البحث مستمرّ...».

«ليس لدينا الوقت لترجمته الآن، فمن شأن الحرّاس أن يرجعوا في أيّ لحظة. علينا الخروج من هنا!».

وصلا إلى آخر الممرّ، ولكن قبل أن ينعطفا عند الزاوية، أطلّا للتأكّد من عدم وجود أحد. وعندما اطمأنّا إلى خلوّ المكان، قرّرا العودة أدراجهما إلى غرفة النجم. وإذا لم يعثرا على ماروك هناك، فسيبحثان عن طريقة للخروج من المبنى.

أمسكا بإحكام بتصريحَي الدخول الموضوعَين في جيبيهما، واللذين كانا عبارة عن حشرتي خنفساء، وبدآ بتحليل كلّ ما سمعاه.

سأله جايسون أخيراً: «إذاً من هي أوبليفيا نيوتن، بالضبط؟».

أجابه ريك: «في الحقيقة، لا أدري... فأنا لم يسبق لي أن التقيت بها قبل مجيئي إلى منزلكم، أمس... يجب أن أسأل أمّي، فلا بدّ أنّها تعرف. أو ربّما... ربّما يجب أن نسأل غويندالين، مصفّفة الشعر في خليج كيلمور. تقول أمّي إذا حطّت ذبابة في خليج كيلمور، فإنّ غويندالين تعرف بها».

كرّر جايسون: «أوبليفيا نيوتن... في مصر».

قال ريك: «ما زلت عاجزاً عن التصديق...». انعطفا في الممرّ الذي يحرسه الشيطان المجنّح. «هل سمعت ما قالت؟ انتهى أمرك يا يوليسيس! لقد وفت أوبليفيا نيوتن بوعدها!».

قال جايسون بصوت خافت: «نعم، سمعت... وكدت أن أصرخ. بتنا نعرف الآن أنّ أوبليفيا تكره مالك فيلّا آرغو القديم».

قال ريك: «لدى التفكير في الأمر، عندما وصلت إلى منزلكم، كانت هي والبستاني يتجادلان بحدّة».

«علامَ؟».

«لم أفهم تماماً، ولكن للأمر علاقة بفيلّا آرغو».

أجفل جايسون وقال: «هل تعتقد أنّ أوبليفيا... ربّما تعرف بأمر الباب، والمغارة... والسفينة؟».

تمتم ريك: «ربّما... ولكن علينا الآن الخروج من هنا، اتّفقنا؟».

بينما كانا يســيران وهما يترقّبــان أدنى ضجّة ويتفحّصان كلّ منعطف، لم يستطع جايسون أن يكفّ عن التفكير في الأمر.

«لقــد تمّ إخفاء كلّ شــيء». ومضت الجملة في رأســه مثل البرق، وجلبت معها سلسلة من التفاصيل: الباب السحري المغطّى بالخــدوش والحروق والمخبّــأ وراء الخزانة؛ الرزمة البريدية التي لــم يذهب أحد للمطالبة بها؛ الممرّ الســرّي المنهار جزئيّاً؛ فتحة التهوية في المغارة؛ اليوميّات التي ذكر فيها قبطان ســفينة ميتيس أنّها ستكون رحلته الأخيرة.

صرخ قائلاً: «لقد تمّ إخفاء كلّ شيء! إخفاؤه أو محوه. فكّر في الأمر يا ريك! الجدار الذي يُغلق الممرّ، والبند المشطوب في السجلّ، والكوّة الخالية. لقد تمّ إخفاء أو نقل كلّ شيء... كما لو أنّه ثمّة شيء لا يجب العثور عليه، شيء خطير».

عصفت الرياح بفيلّا آرغو.

عند المدخل، تأمّلت جوليا المشــهد الذي تطلّ عليه النوافذ. أتى نيستور إليها بصمت ووقف خلفها يحدّق إلى المطر المتساقط والضوء المنبعث من المنارة، الذي يدور حول نفسه بكسل.

سألته جوليا: «هل يحدث هذا كلّ ليلة؟».

أجاب البستاني وهو يهزّ كتفيه: «كلّا، بل من حين إلى آخر، عندما يتذكّر ليونارد تشغيله...».

«ألا تعمل المنارة جيّداً؟».

«بل هي بحالة ممتازة، لكنّ المشكلة في الحارس».

«لم أفهم...».

«ليونارد يبصر بعين واحدة». انتظر البستاني إلى أن بلغ ضوء المنارة الأبيض أطراف الحديقة ثمّ اختفى في البحر. «فقد تواجه ذات مرّة مع قرش».

ارتجفت جوليا.

تمتم البستاني: «تحدث أشياء كهذه في البحر».

قالت جوليا بعد لحظة: «يمكنك المكوث هنا، إذا أردت...».

لكن عندما استدارت، رأت أنّ نيستور قد رحل، تاركاً إيّاها بمفردها. استندت إلى تمثال الصيّادة وهي تفكّر، ثمّ عادت إلى المنطقة المظلمة والباردة عند أسفل السلّم. حدّقت إليها الصور المعلّقة على الجدار بكآبة. فجأة، سمعت صوتاً، فجمدت في مكانها.

سمعت ضجّة آتية من غرفتها في الأعلى، فحاولت عدم التفكير في الأمر.

قالت في نفسها، «ما من أحد في هذا المنزل».

امتدّ أمامها صفّ الغرف والأروقة في الطابق الأرضي، وكان آخرها المطبخ. ولم يكن هناك ضوء واحد في أيّ مكان.

همست بصوت خافت: «نيستور؟».

كان المطر يهطل بغزارة على المنزل.

سمعت من جديد ضجّة آتية من الطابق العلوي. فتمسّكت بالدرابزين الحديدي وصعدت أوّل درجة.

«نيستور؟».

صعدت درجة ثانية، وثالثة، إلى أن استطاعت أن ترى من خلال النافذة الوحيدة التي تنير الدرج ضوءاً خارج الحديقة.

ثمّ تناهى إليها صوت محرّك.

ذُعرت جوليا واندفعت مجدّداً إلى المدخل وهي تصيح: «نيستور! نيستور!».

في تلك اللحظة، توقّفت سيّارة في باحة فيلّا آرغو.

الفصل 12

- أضواء في الحديقة -



توقّف ريك وجايسون فجأة عندما اخترق دويّ الأبواق صمت بيت الحياة مجدّداً، تلاه تصفيق بدا قريباً جدّاً.

حدّقــا بحذر مــن الزاوية ورأيا غرفة كبيرة صفراء اللون ذات فتحة تؤدّي إلى الحديقة. كان التصفيق قادماً من الخارج.

عضّ ريك على شــفته ونظر إلى الخلف. لقد ســلك الطريق الخاطئ...

اقترب الولدان من النافذة بحذر. كان قد تجمّع حشــد بهيج من الناس في الحديقة، ضمن الشــارع الرئيس. ووســط مطر من بتلات الأزهار الملوّنة والأعلام، مرّت عربة ذهبية يجرّها حصانان أسودان رائعان.

هتف جايسون عندما رأى الشخص الواقف داخل العربة: «إنّه هو! إنّه توت عنخ آمون!».

ألقــى الطفل الفرعون، بحلّته البيضاء المزيّنة بالذهب، التحيّة على الحشد وهو يلوّح بيده. إلى جانبه، وقف رجل مهيب أبيض اللحية وأمسك برسن الخيل.

قال ريك: «لا بدّ أنّ ذاك هو والد ماروك...».

فقــط لو يتمكّنا مــن التحدّث إلى رئيس الكتبــة المعظّم... فذاك الرجل هو على الأرجح من الأشخاص القلائل الذين قابلوا يوليسيس مور.

تأمّل جايســون المشــهد، وقلبه ينبض بحماسة. كم يتمنّى لو

كان هناك في الحديقة، ينظر مباشرة في عينيّ الفرعون!

قــال ريك: «أعتقد أنّه يجــدر بنا الذهاب... علينا العودة إلى حيث كنّا. فنحن لن نصل أبداً إلى غرفة النجم من هنا...».

في تلك اللحظة، سمعا صوتاً: «صه!».

«ماذا قلت؟».

«لم أقل شيئاً».

«ظننت أنّني سمعت همسة...».

قال جايسون: «ربّما جاءت من الخارج».

كرّر الصوت الصغير: «صه!».

حــدّق ريك إلى التمثــال الذي يحرس مدخل الممرّ. «ها قد سمعتُه مجدّداً».

قال جايسون: «أنا أيضاً سمعته هذه المرّة!».

قال الصوت أخيراً: «صه، يا شباب! أنا هنا!».

أطلّ رأس ماروك من كوّة عند أقدامهما.

«هل ذهب الحرّاس؟».

صاح ريك: «ماروك! ماذا تفعلين هنا؟».

تفحّصت الفتاة الممرّ عدّة مرّات للتأكّد من عدم وجود أحد آخر. أخيراً، اطمأنّت للخروج.

قالــت وهي تقف وتنفض نســيج عنكبوت عن ذراعها: «لقد كانوا على وشك أن يقبضوا علينا! قلت لكما...».

قال جايسون: «إذاً، اختبأتِ هنا...».

لم يكن من الصعب استنتاج ما حدث. فما إن سمعت ماروك وقع الخطى، حتّى هربت واختبأت بالقرب من أحد التماثيل. وعندما شاهدت أوبليفيا والشابّ المصري يصلان، سيطر عليها الذعر، فتسلّلت للاختباء في أقرب كوّة.

قالت الفتاة بعصبيّة وهي تدفع جديلتها خلف كتفها: «لكن الآن دعونا نغادر هذا المكان، رجاء!».

اصطحبتهما ماروك إلى درج شديد الانحدار يؤدّي إلى الطابق السفلي.

سألها ريك: «هل سمعتهما يقولان شيئاً معيّناً؟».

«بالتأكيد! فقد بدت غاضبة، وكان الشابّ يحاول تهدئتها. سمعتهما يقولان إنّهما سيذهبان إلى دكّان الخرائط الضائعة من زمان، خارج بيت الحياة».

تمتم جايسون: «خبر جيّد...».

بعد بضع دقائق، بلغوا نهاية السلّم الذي قادهم إلى فتحة يتخلّلها ضوء الشمس. عبرها كلّ من جايسون وريك وماروك، ووجدوا أنفسهم في حديقة بيت الحياة، خلف الحشد الذي كان يهتف للفرعون.

لم يكن ثمّة أثر لأوبليفيا نيوتن أو دليلها.

نفضوا ملابسهم قدر الإمكان، وبحثوا عن مكان هادئ ليرتاحوا فيه.

استند ريك وجايسون إلى جذع شجرة نخل صغيرة، وقاما بترجمة الرسالة المكتوبة على ورق البردي في أقلّ من خمس دقائق.

قرأ ريك الجملة الغامضة بصوت عالٍ:

ملاحظة. قرّرت وضع الخارطة في مكان آمن:
الغرفة التي لا وجود لها.

ابتسم جايسون قائلاً: «إذاً هذه هي وجهتنا التالية. الغرفة التي لا وجود لها».

قالت ماروك: «لا أعتقد أنّ هذا الدليل سيساعدكما كثيراً... لا بل على العكس تماماً. أعتقد أنّ صديقكما خدعكما...».

سألها جايسون: «لماذا؟».

«إذا كان يقول إنّ الخارطة مخبّأة في الغرفة التي لا وجود لها... فهذا يعني أنّه أتلفها».

«لم أفهم...».

ضحكت ماروك وشرحت قائلة: «الغرفة التي لا وجود لها هو

تعبير مجازي... فوضع شـــيء في الغرفة التي لا وجود لها يعني التخلّص منه، أي وضعه في مكان غير موجود».

«هل أنت واثقة؟».

«بالطبع، فهذه الجملة مأخوذة من أسطورة، من حكاية خرافية، مثل قصّة العاشقَين اللذين تاها وظلّا يهيمان على أمل العثور على بعضها مرّة أخرى».

«لكنّ صديقنا قال إنّه يريد وضعها... في مكان آمن...».

«أفضل طريقة لإخفاء شيء ما هي إتلافه. وربّما هذا ما قصده صديقكما...».

تمتم جايســـون: «لكنّ هذا غير ممكن... فنحن نعلم أنّ ثمّة خارطـــة لخليج كيلمور مخبّأة هنا في مصر... وأيّاً يكن ما رُســـم عليهـــا، فهـــو مهمّ حقّاً. وربّما فسّـــر لنا غموض الباب السحري والميتيس... على أيّ حال، يتعيّن علينا العثور على الغرفة التي لا وجود لها قبل أوبليفيا نيوتن».

قال ريك: «هذا يعني...؟».

قالت ماروك: «هذا يعني أنّكما مجنونان، وأوبليفيا نيوتن تلك أكثـــر جنونـــاً منكما! فالبحث عن الغرفة التي لا وجود لها أشـــبه بالبحـــث عـــن حبّة من الرمل في وســـط الصحراء. ولكن تفضّلا، افعلا ما يحلو لكما...». ثمّ أشـــارت إلى الجدران العملاقة لبيت الحياة مضيفة: «إذا قمتما بتمشـــيط كلّ شـــبر من هذا المبنى، غرفة

غرفة، ستمضيان كلّ حياتكما في البحث عنها».

قــال ريــك وهو يئنّ: «نحن لا نملك كلّ هذا الوقت... حتّى إنّنا لا نملك كلّ المساء».

ركعت ماروك على العشـب قائلة: «نعـم... وبالحديث عن ذلـك، أعتقد أنّ الوقت قد حان لتخبراني من أنتما بالضبط؟ ومن أين أتيتما، أليس كذلك؟».

اختبأت جوليا وراء تمثال الصيّادة وبقيت هناك تراقب.

كانت قد توقّفت في الباحة سـيّارة رياضية سوداء غير مريحة المظهـر، جلـس فيها رجل يضع نظّارة شمسـية. عندما فتح باب السيّارة، ومضت المصابيح الأمامية لتُظهر رجلاً قوي البنية وطويل القامة، يرتدي معطفاً واقياً من المطر، طويلاً ومغضّناً.

ترجّل من السيّارة وهُرع إلى باب فيلّا آرغو... لكنّه لم يطرقه. سـمعته جوليا يعبث بقبضة البـاب، كأنّه يتحقّق ممّا إذا كان البـاب قـد تُرك مفتوحاً أم لا، ثمّ سـار حول المنزل وتوارى عن الأنظار.

فـي تلـك اللحظة، امتـدّت يد من خلفها وأمسـكت بها ثمّ سحبتها عن الأرض.

همس نيستور وهو يرخي قبضته ببطء: «لا تتفوّهي بكلمة... ربّما يعتقد أنّنا لسنا في المنزل».

«من هذا؟».

«هسّ!».

دفعها نيستور إلى الظلّ، وتوقّف عند أسفل الدرج. لمع البرق، وظهر الرجل الذي يرتدي المعطف خارج النافذة مباشرة. كادت جوليا أن تصرخ، لكنّ يد نيستور كتمت صرختها.

ضغط الرجل الغريب وجهه على النافذة وحدّق إلى الداخل.

همس نيستور: «المكان هنا مظلم جدّاً. لن يتمكّن من رؤية شيء... كما أنّ الزجاج مقاوم للكسر...».

وضع الرجل يده على مقبض الباب الزجاجي وحرّكه.

كان الباب مقفلاً.

قال نيستور بصوت خافت: «كلّ شيء مقفل... لن يتمكّن من الدخول».

بدأ الرجل يسير على طول المحيط الخارجي للمدخل، ويتحقّق من الأبواب الأخرى.

همست جوليا: «باب المطبخ...؟».

«مقفل. لقد أقفلت كلّ شيء، لا يستطيع الدخول».

همست مجدّداً: «النافذة في الغرفة الحجرية! فتحتَها لترى ما إذا كانت السماء تمطر».

حذّرها نيستور: «لازمي مكانك...». واختفى في الظلام.

وقفت جوليا ساكنة وهي تصغي إلى خطى نيستور، الذي ابتعد ليتحقّق من النافذة في الغرفة الحجرية.

لم تحرّك ساكناً وهي تراقب الغريب يجرّب بشكل منهجي كلّ مقابض الأبواب الزجاجية المزدوجة التي تحيط بالرواق.

مقفل، مقفل، مقفل.

توجّـــه ببـــطء إلى الباب التالي. نظراً إلى المطر الذي بلّل كلّ النوافذ، لم تتمكّن من رؤية الخطوط العريضة لجســـمه أو ملامح وجهه. لكنّها كانت واثقة أنّها تسمع، على الرغم من عويل العاصفة، ووقع خطواته.

وصل إلى الباب الرابع وخفض المقبض.

كادت عينا جوليا أن تخرجا من محجريهما.

لم يكن الباب مقفلاً.

مـــن دون أن تفكّـــر في ما تفعله، قفزت من مخبئها وصاحت مندفعة نحوه برأسها المنخفض: «لا!».

توقّف الغريب في مكانه مجفلاً.

كان قد فتح نصف الباب المزدوج، متيحاً دخول هبّات الرياح الرطبة، ومال إلى الأمام لينظر إلى الداخل.

صاح: «من هناك؟».

أضاء البرق السماء خلفه.

في تلك اللحظة تماماً، وصلت جوليا إلى الباب وأغلقته في وجهه.

سُمع صوت نظّارة شمسية تتحطّم. ثمّ ترنّح الرجل إلى الخلف، واضعاً يديه على أنفه.

عندئذٍ، أغلقت جوليا الباب بإحكام وأقفلته.

سمعت وقع خطى آتية من خلفها، وصوت نيستور يقول: «جوليا، ماذا حدث؟ أوه، لا...».

إلى الجانب الآخر من الباب الزجاجي، كان مانفريد قد سقط على ركبتيه على العشب المبلّل. أمسك بأنفه الدامي بين أصابعه وراح يتحسّس الأرض من حوله باليد الأخرى، محاولاً العثور على نظّارته الشمسية الغالية.

صاح وهو يجاهد للوقوف على قدميه: «لقد صدمتِ أنفي! سأجعلك تدفعين الثمن!».

قام مترنّحاً، واندفع ليلقيَ بكلّ ثقله على الباب الزجاجي للمدخل. بوووم!

تراجع نيستور وجوليا نحو الدرج، لكنّ الزجاج لم يتحطّم.

صاح مانفريد تحت المطر: «سأدمّر كلّ شيء! كلّ شيء!».

قال نيستور مشجّعاً: «لا تقلقي... كلّ شيء على ما يرام. هذا الزجاج مقاوم للكسر، ولن يتمكّن من اختراقه».

دوى الصوت مجدّداً. بوووم!

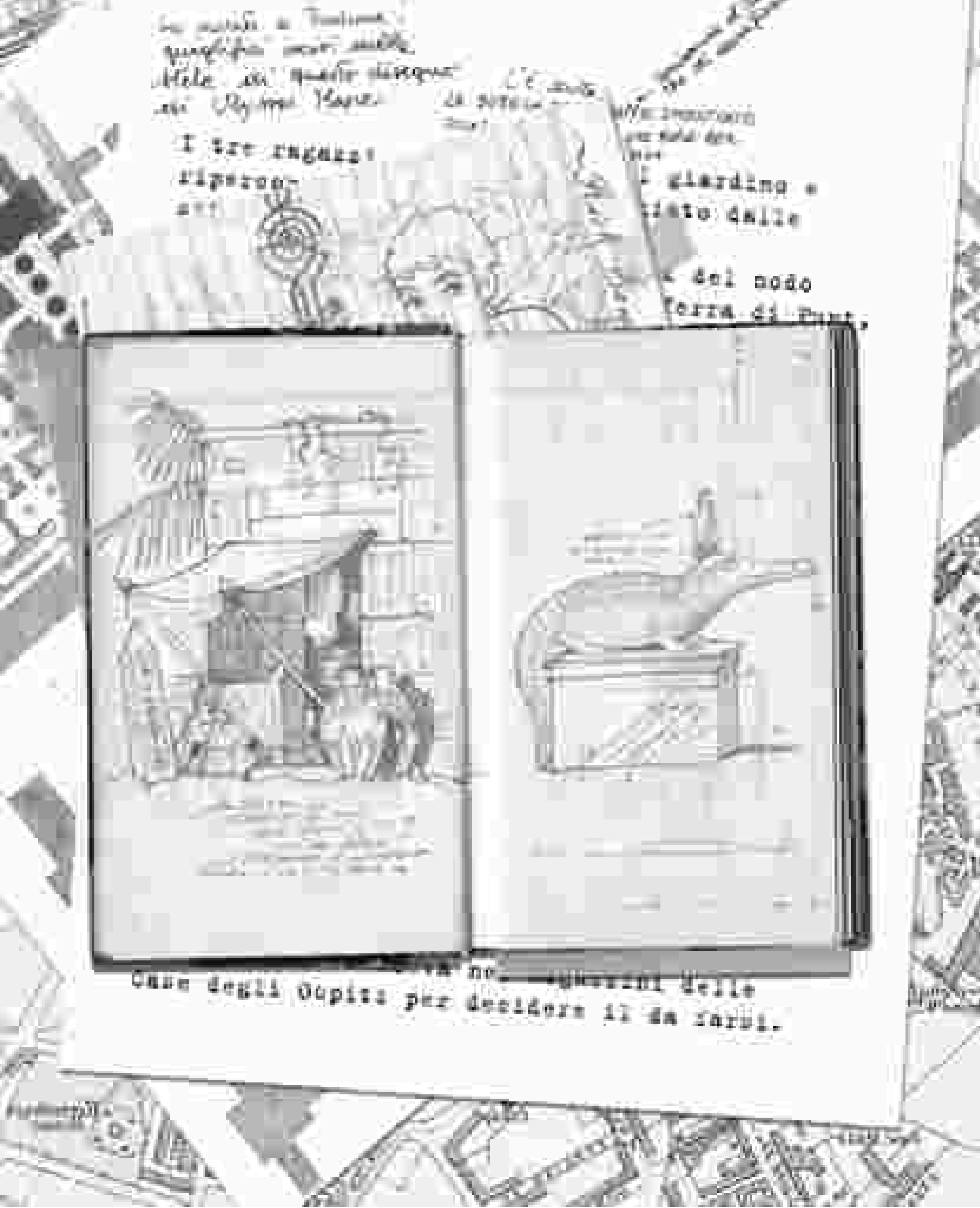
صاح الغريب: «سأجعلكم تدفعون الثمن!».

مرّ ضوء المنارة ببطء فوق الحديقة وتساءلت جوليا: «نيستور، من يكون هذا الرجل؟ وماذا يريد؟».

أجاب البستاني متجهّماً: «إنّه يريد الدخول».

الفصل 13

- في الخارج -



عبر الأولاد الثلاثة الحديقة وسلكوا الطريق المحاط بتماثيل أبو الهول. كان ريك وجايسون قد جعلا ماروك تقسم أنّها لن تخبر أحداً بكيفيّة وصولهما إلى أرض بونت. كما أخبراها عن جوليا، وكيف اختفت عبر الباب السحري. ورويا لها كلّ ما يعرفانه عن مالك المنزل السابق. اعترف لها جايسون أنّه يشكّ في أنّ الرجل لا يزال على قيد الحياة، وأنّه موجود في مكان ما في خليج كيلمور، أو ربّما هو سجين في مكان ما.

دُهشت ماروك بحيث عجزت عن قول شيء. كانت قد اشتبهت منذ البداية في أنّ جايسون وريك يخفيان عنها أمراً، لكنّ قصّتهما تجاوزت كلّ تخيّلاتها. مع ذلك، ومن دون أن تدرك السبب حقّاً، شعرت أنّها تستطيع الوثوق بهذين الولدين الغريبين...

توقّفوا عند أعلى الدرج المؤدّي إلى مخازن بيت الزوّار ليقرّروا ما ستكون خطوتهم التالية.

من جهة كان الدرج الذي يمكن أن يعيدهم إلى جوليا، ومن الجهة الأخرى كان المخرج المؤدّي إلى ما وراء الأسوار باتّجاه المدينة في الخارج، وتحديداً نحو دكّان الخرائط الضائعة من زمان.

قالت ماروك: «إذا أردتما الذهاب لإلقاء نظرة على الدكّان، لا يمكنني مرافقتكما... فأنا لا أملك الإذن للخروج من حدائق بيت الحياة».

تمتم ريك: «هذا جنون». وعندما بقي جايســـون صامتاً، كرّر بصوت أعلى: «هذا جنون».

عندئذٍ قال جايســـون: «حســـناً، حسناً، قد يكون هذا جنوناً... ولكـــنّ دكّان الخرائـــط الضائعـــة من زمان هـــو مفتاحنا الوحيد. بالإضافة إلى ذلك، يمكننا الوصول إليه خلال وقت قصير!».

هزّ ريك رأسه بتشكّك.

بدا كلّ شـــيء صعباً للغايـــة... ففي النهاية، لم يكونا يملكان ســـوى مفتاح واحد، هو عبارة عن جملة: ملاحظة. قرّرت وضع الخارطة في مكان آمن: الغرفة التي لا وجود لها.

لكن هذه الرســـالة كانت غريبة مقارنة بالرسائل الأخرى التي عثرا عليها ســـابقاً، والتي كُتبت بالرموز نفســـها. فهذه الأخيرة لم تكن تشـــتمل على قافية، ولا تبدو شبيهة بقصيدة، بل كانت رسالة عاديّة، جافّة وعمليّة.

وهذا ما جعلها محيّرة أكثر.

كانت ماروك هي التي وضعت حدّاً لتردّدهما: «اسمعا، إليكما ما يمكننا القيام به. أنا أبقى هنا، في الطابق السفلي بجوار مخازن بيت الزوّار، لانتظار جوليا في حال أتت في غيابكما. أخبراني فقط ماذا أقول لها لكي تعرف أنّني من طرفكما».

بدا ذلك الحلّ معقولاً. صحيح أنّه ضعيف، ولكنّه يبقى حلّاً.

قال جايســـون بعد لحظات: «أجل... بإمكاننا فعل ذلك. إذا

عادت جوليا، فسوف تمرّ عبر الغرفة نفسها التي قابلناك فيها».

ابتسمت ماروك: «عرفتُ ذلك أساساً».

«يمكنك إخبارها أنّ... أنّ ريك وشقيقها ذهبا لإنجاز مهمّة، وأنّه لا داعي للقلق، فنحن بخير».

«وأنّنا كنّا قلقَين عليها».

كرّر جايسون: «نعم. أخبريها أنّنا كنّا قلقَين عليها، وأنّه لا يجدر بها أن تركض بهذا الشكل كلّما قلتُ لها اهربي».

ربّت جايسون بلطف على كتف الفتاة المصريّة قائلاً: «شكراً لك يا ماروك، أنت صديقة حقيقيّة».

قبل أن ينصرفا، أضاف ريك: «بالمناسبة، جوليا تشبه جايسون كثيراً، ولن يكون من الصعب عليك التعرّف عليها. فهما توأمان. إلّا أنّها بالفعل...» أمسك نفسه قبل أن يقول جميلة، وتابع قائلاً: «... أطول منه».

من دون قول شيء، أخرج ريك وجايسون التصريحين للحرّاس، ثمّ غادرا بيت الحياة ووجدا نفسيهما في مدينة بونت. كانت الطرق خارج الأسوار الضخمة مكتظّة بأكشاك تفيض بالبضائع. جميع أنواع الحيوانات التي تصدر مختلف أنواع الأصوات في الأقفاص. تماثيل وأطباق من المرمر، ومخاريط مطليّة مع نفحات من العطور الحلوة التي تفوح حولهما، وجرار

مليئة بزيت الخروع، وألواح مسطّحة من الخبز المقرمش، وصوانٍ من التين والتمور، وسجّاد من القصب المنسوج، وعباءات من الصوف والأقمشة اللمّاعة، وامرأة تستعرض المجوهرات المصنوعة من الأحجار الكريمة لبيعها لزوّار السوق الأثرياء.

مرّ جايسون عبر ذلك السوق الفوضوي من دون أن ينظر حوله. توقّف ريك خلفه ليتفحّص كلّ شيء تقريباً، ويتعرّض لمطاردات التجّار. أينما نظر، وجد أناساً، وألواناً، وأصواتاً، وخيماً، وصيحات، وفوضى...

لكنّ الوقت لم يكن يسمح لرؤية كلّ شيء.

فجأة، توقّف جايسون في منطقة مفتوحة من السوق. أمامه، كان ثمّة رجل ضخم بشرته بلون خشب الأبنوس، وكان يحرس أربعة أشخاص يجلسون بحزن على الأرض، مقيّدين معاً بسلسلة.

قال ريك، وهو يتذكّر ما قرأه في اليوميّات: «أوه، كلّا! لقد انتهى بنا المطاف في سوق الرقيق!».

في الواقع، كان ثمّة أكشاك مشابهة في هذه المنطقة، لكنّ البضائع المتداولة كانت بشراً بلحم ودم.

إلى مسافة أبعد، تحوّلت الطريق إلى زقاق ضيّق مزدحم بالأكشاك ذات الألوان الزاهية والبهيجة ويمتدّ بين مبنيَين مائلَين.

صاح جايسون: «ريك.... الدكّان... هل يمكن أن يكون هو؟».

وأشار إلى مبنى مربّع يبدو أنّه بُني بالطوب المأخوذ من بيت

الحياة. غطّت جدرانه رسوم هيروغليفيّة تمثّل البحر والسماء ومسار الشمس الليلي.

وكان ثمّة لوح حجري مثبّت في الأرض أمام المدخل، كُتب عليه:

دكّان الخرائط الضائعة من زمان
أسعار استثنائية لمساعدتك في إيجاد طريقك

أجاب ريك: «أعتقد ذلك».

«حسناً، إذاً دعنا ندخل».

هبط جايسون وريك الدرجات الأربع المؤدّية إلى المدخل، وأزاحا جانباً الستارة التي تغطّيه. استقبلتهما رائحة البخور القويّة والعطور الأخرى التي كانت تحترق في مجمر. تدلّت من السقف مئات الخرائط المعلّقة بسلاسل فضّية. وكان ثمّة طاولة كبيرة منخفضة مغطّاة بأوراق البردي التي تصوّر سواحل، ومدناً، وأنهاراً، وموانئ، وغابات ذات أسماء غريبة وغامضة.

شقّ الولدان طريقهما بتردّد بين الأطالس الخياليّة التي رسمها مستكشفون مجانين للمشرق، وألواحاً ابيضّ لونها سجّل عليها أصحاب رؤى آخرون رحلاتهم. ومرّرا أناملهما على المخطّطات التفصيليّة لبابل، التي تحدّث الناس فيها كلّ لغة من لغات العالم،

ورأيـا مخطّطاً لمدينة أور، أقدمْ مدن الجنس البشـري. على أحد الجـدران، عُلّقـت خارطة للجدران السـوداء لمدينة ملعونة بناها رجـال يملكون قروناً في جباههـم. وعلى الجدار الآخر، خارطة لأرض في السـماء، لا يمكن الوصول إليها إلّا في الشـتاء، عندما يتجمّد المطر ويشكّل جسراً هشّاً يمتدّ من أعلى جبل إلى السحب. كان نهـر النيـل اللانهائي يمثّل جزءاً كبيراً من المخطّطات النهرية التـي كُتبت معلوماتها بالخطّ الديموطي أو بخطّ هيروغليفي أنيق مذهّـب. ووُضعت بعض الخرائط بأبجديّـة الفينيقيين، أبرز تجّار الشمال، وغيرها بلغات غير معروفة. كان كلّ ما في الدكّان مختلطاً بعضه ببعض، يجمع بين عوالم بعيدة.

ما إن انخفضت سـتارة المدخـل خلفهما، حتّى طغت على ضوضـاء البازار الأصـوات الخياليّة المنبعثة من الخرائط. أُسِـر الولدان على الفور بسـحر المكان وبالأسـماء والقصص التي لا تُحصـى التـي يزخر بها الحبر. ولم يكن أيّ من أروقة بيت الحياة الهائل قد بعث فيهما هذا الشعور القويّ بالغموض.

مشـى جايسـون في دكّان الخرائط الضائعة من زمان، ومرّر أنامله على الأنسـجة الخشـنة لإحدى الخرائط التي تصوّر مئات الغرف في قصر، وكلّها متّصلة بالسـلالم والممرّات والأروقة. أمّا ريك، فانجذب إلى خارطة مرسومة على لوح خشبي، تصوّر طرقاً ومسارات في البحر.

أجفل كلا الولدان عندما قاطع شرودهما صوت جهوري غير متوقّـع. «هاع! هل أتيتما لمجرّد النظـر واللمس، أيّها الفتَيان، أم تريدان شراء إحدى خرائطي؟».

اسـتدار جايسـون باتّجاه الصـوت. في الزاويـة القريبة من المدخل، رأى رجلاً مسـنّاً ذا عينين بيضاوين كالحليب، وشـعر خفيف، جالساً على عرش من الوسائد. كانت قدماه منقوعتين في وعاء كبير مملوء بالماء السـاخن الذي يتصاعد منه البخار، وإلى جانبه تمثال لتمساح، مقيّد إلى كرسي بحبل متين.

قال جايسـون متلعثماً وهو يخطـو خطوة نحو الرجل: «مـ- مرحباً، سيّدي...».

لكـن في اللحظـة التي خطا فيها خطوتـه التالية، لاحظ أنّ التمسـاح الذي اعتقده تمثالاً في البداية فتح فكّيه ببطء. كان بؤبؤ عينيه أصفر كبيراً تعترضه في الوسط قزحية عموديّة سوداء. وقف جايسون في مكانه مرعوباً، بينما قال ريك من خلفه وهو يرتجف: «هل هذا الشيء حيّ؟».

ضحـك الرجل المسـنّ وهو يضع يـده الضخمة على خطم التمساح: «هاه، هاع...». كانت يده في الواقع كبيرة الحجم ومتينة بحيث اختفت خواتمه الضخمة بالكامل بين ثنايا أصابعه.

«الفتى يسأل ما إذا كنت حيّاً يا تالوس».

فتـح تالـوس فكّيه، كما لو أنّه أراد أن يثبت عبثيّة السـؤال،

وكشـــف عن ثلاثة صفوف من عشـــرات الأسنان الحادّة كالمبرد. فقفز جايسون وريك إلى الخلف مرعوبَين.

أغلق التمساح فمه مجدّداً، فبدا فكّه أشبه بمصيدة للدببة، بينما حرّك صاحبه قدميه داخل حوض الماء.

«حسناً، أيّها الولدان... أخبراني ماذا يفعل غريبان مثلكما في دكّان مثل دكّاني».

عندمـــا لاحظ الرجل أنّهما متـــردّدان في الكلام، أضاف: «ما علـــيّ ســـوى إلقاء نظرة واحدة على طـــرف أنفيكما لأدرك أنّكما غريبان، ممّا يعني أنّكما على الأرجح تائهان. وبالتالي، فقد أتيتما على ما يبدو إلى المكان الصحيح...».

أخذ جايسون نفساً عميقاً ثم قرّر الردّ. «في الواقع، أنت مخطئ يا سيّدي. نحن لسنا غريبَتين ولسنا تائهَين. نحن مجرّد ولدين من بونت... نبحث عن شيء معيّن». ثمّ نظر إلى ريك مضيفاً: «أليس هذا صحيحاً؟».

«بالضبط. أممم... نحن نبحث عن... خارطة».

«خارطـــة! هاه، هاه، هاع!» أخذ الرجل يقهقه وهو يســـترخي أكثر على عرشه. «لا شكّ أنّ هذا يوم حظّي... وعن أيّ الخارطة تبحثان يا ترى؟».

أجاب جايســـون بنبرة في غاية الجدّيـــة: «إنّها خارطة لمكان يدعى خليج كيلمور».

هتف الرجل وهو يكز تالوس بظاهر يده: «حتماً هذا يوم حظّي. شخصان يسألان عن الخارطة نفسها في نصف يوم! لا شكّ أنّها خارطة مهمّة للغاية، ما دامت النساء والأطفال قد شرعوا في البحث عنها».

حاول جايسون وريك تجاهل الإهانة وسألاه: «هل تقصد القول إنّ شخصاً آخر قد حضر إلى هنا بحثاً على تلك الخارطة؟».

«هاه، هاع! صحيح ما تقول!». رفع الرجل إحدى قدميه من الحوض، وتأمّلها عابساً باشمئزاز، قبل أن يعيدها لتنتقع أكثر. «جاءت امرأة إلى هنا مع أحد صبياني... لو رأيتماها! كانت أشبه بامرأة هستيريّة أثارت عصبيّة تالوس فور دخولها... فهو لا يتحمّل الأشخاص شديدي التوتّر».

تبادل جايسون وريك نظرة. لا شكّ أنّها أوبليفيا نيوتن والشابّ المصري.

«وماذا قلت لها؟».

«بالضبط ما أنا بصدد قوله لكما. لا أملك تلك الخارطة، وباعتقادي، لا وجود لها أساساً. لو كانت موجودة في المجموعة، وكانت ذات قيمة... لكان أحد صبياني قد أخبرني بأمرها، أو على الأقلّ صنع لي نسخة عنها».

قال جايسون بجرأة: «على الرغم من أنّك تفضّل سرقة النسخة الأصليّة، أليس كذلك؟».

«هاه، هاع! كم لسانك حادّ، أيّها الفتى! لكن كن حذراً! فمن يلعب بالنار غالباً ما يحرق أصابعه...». ما إن أنهى الرجل المسنّ جملتــه، حتّــى حرّك تالوس ذيله خلف الكرســيّ. «بالإضافة إلى ذلك... كلمة ســرقة هي كلمة قبيحة. فمن المحزن إضاعة الذكاء والجهد وترك بعض الخرائط تتعفّن في بيت الحياة، في حين أنّ ثمّة كثيراً من الأشخاص الآخرين المستعدّين لدفع وزنها ذهباً ليضعوا أيديهم عليها. ألا توافقني على ذلك؟».

أجاب ريك: «بيت الحياة مفتوح للجميع».

«لكــنّ الخرائط ليســت كذلك. فالخرائط تُرســم فقط لمن يعرفون كيفيّة قراءتها. ولكلّ رجل خارطته. لكلّ رجل وفتى، طريق يمشيه...».

انتظر ريك وجايسون بضع ثوانٍ قبل المتابعة.

كان وجه الرجل المسنّ مخفيّاً في ظلام الدكّان، كما موّهت ملامحه شــبكة معقّدة من التجاعيد. وكان الشيء الوحيد الواضح تماماً فمه، الذي غالباً ما يفتحه واسعاً وهو يقهقه بين تعليق وآخر.

قال جايسون: «لكن صدّقني، الخارطة موجودة بالفعل...».

«هذا بالضبط ما قالته المرأة الهستيرية قبل لحظات. هاه! هاع! وقلت لها أن تذهب للبحث عنها إمّا بالسؤال لدى مقرّ المفهرسين أو بالنزول إلى الأرشــيف المدفون. هناك في الأســفل، ثمّة أشياء

لم يتمّ تسـجيلها في الدفاتر بعد، أو لم يتمّ دفع رسـوم تخزينها. لقد أرسـلت معها أحد صبياني، شـرط أن تدفع لي المرأة أتعاب المساعدة، بطبيعة الحال...».

قال جايسـون: «لا أعتقد أنّ الخارطة موجودة في الأرشـيف المدفون، أو أنّ المفهرسين سيتمكّنون من مساعدتها فعلاً».

«هـذا بالضبـط ما أخبرتها به، يا طويل اللسـان، لكنّها كانت غاضبة جدّاً، ومتلهّفة لدفع المال لكلّ من يساعدها في بحثها، فلم أستطع أن أقاوم مدّ يد العون لها. هاه، هاه، هاع!».

قاطعه ريك: «نحن نعرف على وجه اليقين أنّ الخارطة كانت محفوظة داخل المجموعة، لكنّ أحدهم نقلها من هناك».

«هاع! وإلى أين نقلها يا ترى؟».

تبادل جايسون وريك النظرات مطوّلاً. أخيراً، تنهّد جايسون وأومأ برأسه فيما قال ريك: «لقد تمّ نقلها إلى الغرفة التي لا وجود لها».

توقّف الرجل فجأة عن الضحك، وبدا كأنّه كان على وشـك أن يهبّ واقفاً. مال رأسـه جانباً وانحنى إلى الأمام، كاشـفاً وجهه في الضوء.

«ماذا قلت يا فتى؟».

كرّر ريك كلامه، مع أنّ صوته ارتعش قليلاً هذه المرّة.

«آه!» قال الرجل المسنّ ذلك، ثمّ ارتخى مجدّداً بكلّ ثقله على ظهر الكرسيّ. «إذاً، لقد اختلف الأمر تماماً».

«لماذا؟».

قال الرجل بصوت متوتّر: «أنتما صغيران أيّها الولدان! ما زلتما صغيرَين جداً للقيام بهذا البحث! انصرفا الآن! اخرجا من هنا! ابحثا عن أولاد مثلكما واذهبوا لرمي الحجارة في الماء، أو اجلبا لوح سينيت لتلعبا به. العبا بعظام الأستراغالوس إن شئتما. افعلا ما يحلو لكما، ولكن انسيا أمر تلك الخارطة! والأهمّ من ذلك، انسيا أمر الغرفة التي لا وجود لها».

«لا يمكننا ذلك، فهذا مهمّ للغاية بالنسبة إلينا».

دمدم الرجل المسنّ: «ثمّة أمر واحد فقط مهمّ بالنسبة إليكما... إنّه الوقت! لديكما الوقت! ولا ينبغي لكما هدره بالسعي خلف شيء لا وجود له! كلّا، اذهبا! اخرجا من هنا! اخرجا!».

سحب الرجل قدميه من الحوض، وشدّ الحبل المربوط حول تالوس، الذي بدأ يزحف على بطنه.

لم يتزحزح ريك من مكانه. حتّى عندما انقلب الحوض مصدراً ضوضاء عالية، وصاح جايسون بينما اندفع التمساح نحوه كاشفاً عن ثلاثة آلاف سنّ حادّة، لم يتزحزح ريك من مكانه. لا بل استطاع أن يلاحظ أنّ الحيوان ذا الجلد السميك الذي يهاجمه كان يزحف على الأرض بشكل أخرق.

عندما أطبق تالوس فكّيه في الهواء على بعد أقلّ من بوصة واحدة من أنف ريك، بقي في مكانه بلا حراك.

فجأة، انتهى الهجوم كما بدأ.

صاح الرجل بصوته الهادر، فتراجع الحيوان بحذر إلى أن قبع مجدّداً عند قدمي سيّده.

غير أنّ رائحة أنفاس الوحش الكريهة والحادّة بقيت تُثقل الهواء.

لم يتزحزح ريك من مكانه على الإطلاق، وبعد مدّة من ذلك، كلّما فكّر في تلك اللحظة، لم يستطع شرح ما حدث بالضبط. ربّما لم يستطع ببساطة أن يفهم حقّاً كيف سيلتهمه تمساح مروّض مقيّد إلى كرسيّ لصّ مسنّ. أو ربّما كان مرعوباً لدرجة أنّه اختار الطريقة الأسرع للخروج من الموقف: أن يتمّ التهامه لقمة واحدة ويوضع حدّ لبؤسه.

على أيّ حال، ما إن هدأ تالوس، حتّى قام الرجل وأتى إلى الصبيّ ذي الشعر الأحمر. كان وجهه المكسوّ بالتجاعيد ينمّ عن إعجاب صادق. هتف وهو يجرّ ساقيه الثقيلتين، إلى أن وقف وجهاً لوجه أمام ريك بتعابيره الجامدة: «هاع! أقسم أنّني لم أرَ شيئاً كهذا من قبل. ما أنت أيّها الفتى؟ بطل أم مجنون؟».

أغمض ريك عينيه وفتحهما مجدّداً. بدأ قناع الجنون الذي منعه من الإتيان بأيّ حركة يتلاشى ببطء، وأدرك شيئاً فشيئاً ما نجا منه للتوّ بأعجوبة.

خلفه، أطلّ جايسون برأسه من بين عدد من الخرائط القديمة المتراكمة أسفل الطاولة. عندما أدرك أنّ ريك لا يزال حيّاً يرزق،

نفض ملابسه محاولاً أن يحفظ شيئاً من ماء وجهه، وذهب ليقف إلى جانبه.

ألقى عليه الرجل المسنّ نظرة إعجاب هو الآخر، وقال: «طويل لسـان وقلب صخر، لم أرَ مثلكما قطّ في حياتي! هاع! أحسـنتما، أيّها الولدان! لقد أعجبتماني!».

قال ذلك، ثمّ عاد ليغرق في عرش الوسائد، وقرّب الحوض إليه بوكزة من قدمه.

لاحظ جايسـون أنّ ريك كان على وشـك الانهيار، فأسـرع لمسـاعدته، ودفع إليه كرسـيّاً لكي يجلس، ثمّ سحب كرسيّاً آخر لنفسه وراح يحدّق إلى وجه صاحب الدكّان، الذي اختفى مجدّداً في الظلّ.

قال جايسـون بصـوت منخفض: «حسـناً، إذاً... هل يمكننا مواصلة حديثنا الآن؟».

تمتم الرجل وهو يمرّر يده على رأس تمسـاحه: «اسـمعا يا طويل اللسان ويا قلب الصخر... لم يسبق لأحد قطّ أن أبدى هذه الجـرأة أمـام أمثال تالوس! يبدو أنّني أخطأت بحقّكما. ما رأيكما أيّها الفتَيان، هل تودّان المجيء للعمل لديّ؟ يمكنني الاستفادة من بعض الدماء الجديدة بين فتياني...».

قرّر جايسـون الاسـتفادة من المصداقيّة التي اكتسـباها عن

جدارة وقال بفوقيّة: «نحن لسنا مهتمَّين بالعمل لديك، أيّها الرجل. لقد أتينا إلى هنا لنعرف كيف نعثر على الغرفة التي لا وجود لها».

«هاع! لقد كانت تلك الغرفة هاجسي، يا طويل اللسان! كلّما ذُكرَت أمامي... شعرت أنّني أشتمّ رائحة النار وأشاهد لهيبها من جديد... لهيباً طويلاً وشاهقاً قضى على سنوات من العمل والتهم أفكاراً لا حصر لها ولا تُقدّر بثمن...» وشرد بصوته بعيداً.

«أيّ حريق؟ هل تقصد ذاك الذي اندلع في مبنى المجموعة منذ بضع سنوات؟».

ومض شيء في ملامح الرجل المسنّ. «وهل سمعت بالقصّة يا طويل اللسان؟».

أجاب جايسون: «سمعت جزءاً منها فقط». ثمّ ضغط على يد ريك، لدعمه وإخباره أنّه إذا أراد أن يغيب عن الوعي من شدّة خوفه، فعليه الانتظار بضع دقائق أخرى.

«قحّ! قحّ! آآآع!». صاحت أوبليفيا نيوتن عندما سمعت أحد كعبيها يتحطّم.

ابتسم الشابّ المصري إلى جانبها قائلاً: «أهلاً بك في الأرشيف المدفون...». وبينما كان ينتظر أن تكفّ المرأة عن

الصراخ وتخلع صندلها، وجّه إليها إحدى تلك الابتسامات التي جعلت غضبها يثور تماماً.

ألقت أوبليفيا صندلها على الأرض وقد احمرّت عيناها بفعل الغبار، وراحت تنظر إلى محيطها.

كانت في مكان كبير تحت الأرض، وهو عبارة عن نفق حُفر في الصخر، بدّدت ظلامه إضاءة خافتة صادرة عن مصابيح زيت الخروع التي انبعث منها وهج عنبري اللون. كان الشابّ يضيؤها واحداً تلو الآخر وهما يتقدّمان. تسرّبت رمال الصحراء من خلال الجدران والسقف، وتراكمت على الأشياء المكدّسة في حالة من الفوضى على الأرضيّة الحجريّة.

قالت أوبليفيا، محاولةً التوازن على أطراف أصابعها، وقد خافت جدّاً من الوقوف حافية على الأرض: «هذا مقزّز. كيف يجد الناس طريقهم هنا؟».

أجاب الشابّ: «يسألون. ومع كلّ سؤال...».

لوّحت أوبليفيا بيدها وقاطعته قائلة: «أعلم، أعلم. مع كلّ سؤال يدفعون».

لحسن الحظّ، كانت أوبليفيا تعرف كيف يسير العالم، وقد غادرت خليج كيلمور مزوّدة بكمّية لا بأس بها من القدّاحات العادية، التي باعتها لقاء وزنها ذهباً في سوق بونت. كان التاجر الذي رأى تلك القدّاحات وهي تعمل، قد أعطاها جبلاً من الدبن،

وهـــي العملة المحلّية المتداولـــة، وكان على قناعة أنّه أبرم صفقة العمــر. وبواســطة ذلك المال، أخذت تدفــع ثمن الخدمات التي تقدّمها لها كلّ شخصيّة مريبة تصادفها في أرض بونت.

مشـــت أوبليفيا بحذر وراء مرشدها وهي تفكّر بعقب الشمعة الـــذي وجدتـــه في الكوّة. كلّما فكّرت في الأمر، زادت قناعتها أنّ شخصاً ما سبقها إلى هناك. شخصاً أحضر معه شمعة حديثة كُتب عليها «صنع في الصين». لكن من هو؟ ومتى أتى؟

تمتم الشابّ ليخرجها من أفكارها: «ها قد وصلنا... هذا هو الرجل الذي نبحث عنه».

رفعت أوبليفيا حاجباً وسألت: «رجل؟».

همس الشابّ في أذنها أنّه ليس من المستحسن انتقاد مظهره، لكونه وُلداً ونشأ هناك.

أضاف بمكر: «كما أنّه... شديد الاعتداد بنفسه».

أومأت أوبليفيا برأسها. من المحتمل جدّاً ألّا يكون المخلوق الـــذي رأته أمامها قد ســبق ونظر إلـــى المرآة ولو لمرّة واحدة في حياته. ولولا ذلك، للاحظ جسده المشوّه والمرتخي، ورأسه الذي يشبه الإجاصة، وعينيه الغائرتين اللتين كانتا بلون الزبادي.

عرّفهما الشــابّ إلى بعضهما بإيجاز. غير أنّ الرجل الســـاكن تحت الأرض، اشـــتمّها عوضاً عن النظر إليها فعلاً. وعندما مدّت أوبليفيا يدها، لم يصافحها، بل حدّق إليها كما لو أنّها جوهرة ثمينة.

حاولت أوبليفيا أن تتغلّب على اشمئزازها وذكّرت نفسها أنّ ذلك المخلوق الأبيض سيساعدها قريباً في العثور على شيء مهمّ للغاية.

هسّ الرجل الساكن تحت الأرض محرّراً يدها: «إذاً... عمّ تبحثششين بالضبط؟».

شرحا له المطلوب، مؤكّدَين على اسم خليج كيلمور.

غرق الرجل في صمت طويل، وهو يهزّ رأسه ببطء.

أشار الشاب إلى أوبليفيا أنّ الوقت قد حان لتبدأ بالدفع. فامتدّت يد الرجل الساكن تحت الأرض مثل لسان أفعى واختطفت النقود المعدنية، التي اختفت على الفور في جيوبه.

تساءلت أوبليفيا كيف سيستخدمها هنا، لكنّها قرّرت عدم طرح السؤال.

هسّ الرجل: «قد تجدين لديّ ما يناسسسسسبك...» وقادهما عبر أكوام من الأشياء المحفوظة داخل الأرشيف المدفون.

شقّوا طريقهم من خلال تماثيل بلا رؤوس، وأثاث قديم متهالك، وصناديق حجرية مليئة بالرقّ، وجرار سمعوا من داخلها أصوات حركة محمومة.

«لا تقل لي أنّ ثمّة فئران هنا...» همست أوبليفيا نيوتن، وقد تذكّرت فجأة أنّها أصبحت حافية.

أجاب الرجل الساكن تحت الأرض، والذي يبدو أنّه يتمتّع بحاسّة سمع ممتازة: «صصصصحيح... ثمّة الكثششير من الفئران،

الكششيــر من الفئــران الممتازة... مــن هنا... اتبعانــي... فئران سسسسمينة، ممتازة».

ابتسم مرشدها الشابّ بسخرية مجدّداً، لكنّ أوبليفيا تظاهرت بعدم ملاحظة ذلك. مشَــت وراءهما، بوجه شــاحب كالأشــباح، وركّزت بشدّة على هدفها.

فجــأة، خطر مانفريد ببالها. لماذا لم تحضره معها؟ فمانفريد صيّاد فئران ممتاز. أمســكت عقب الشمعة الذي تحمله في جيبها وتوقّفت. قبل مغادرتها مباشــرة، أخبرها مانفريد أنه شــاهد أنواراً منبعثة من جُرف ســالتون، أســفل فيلّا آرغو. وقد اختفت خارطة خليج كيلمور عن الرفّ الذي كان ينبغي أن تكون محفوظة عليه.

هل يُعقل ذلك...؟

الفصل 14

- المستكشف -



استخدم الرجل المسنّ قدمَيه لجعل الحوض يحدث قعقعة عالية، ثمّ بدأ يروي قصّته. «كنت في الماضي واحداً من أهمّ المفهرسين الموقّرين... ولم يكن أعظم العلماء يقصدون غيري... للعثور على أقدم المخطوطات، وخرائط الأراضي النائية، واكتشاف أسرار النجوم في السماء... إلى أن أتى يومٌ ظهر فيه رجل أمامي... هاع! ما زلت أتذكّره جيّداً، وكيف لي أن أنساه! درس ذلك الرجل لمدّة من الوقت ورق بردي تأسيس بونت، الذي يحتوي على سجلّات الرجال الأوائل الذين جاؤوا إلى هنا عن طريق البحر وبنوا بيت الحياة، بمساعدة الآلهة. هاع! نعم أيّها الفتَيان، بيت الحياة أقدم من أيّ بناء آخر في بونت. إنّه أقدم من الرّمال نفسها، التي جاءت بعد سنوات عديدة، على أجنحة الرياح الحسودة بعد رحيل المؤسّسين... هاع! ذهبوا! ولكن على ورق بردي تأسيس...».

«وماذا كان فيها؟».

«كان فيها خطأ. كان ورق البردي يحتوي على قائمة بجميع غرف بيت الحياة. ولكن تبيّن أنّ القائمة تحتوي كذلك على غرفة إضافية، غرفة لم يعرف بوجودها حتّى رئيس الكتبة المعظّم، كما يبدو. بعد قراءة قوائمنا الخاصّة، توصّلت إلى الاستنتاج أنّ محتوى ورق البردي خاطئ على الأرجح، وأبلغتُ العالِم بذلك. غير أنّ الرجل لم يقتنع، بل قال إنّه لا بدّ للغرفة أن تكون موجودة ببساطة، وإنّ مفتاح العثور عليها قد يكون مخفيّاً في لغز ما لحمايتها. ولكن،

هاع! لم يكن ثمّة أيّ لغز، لا لغز على الإطلاق، هل تفهمان؟ لم يكن ثمّة لغز، لأنّه لا وجود للغرفة. كان الأمر مجرّد خطأ في ورق البردي. كانت الغرفة لا وجود لها».

حكّ الرجل المسنّ أنفه مفكّراً. «هاع! كنت واثقاً أنّ العالِم يخدعني، ونسيت أمره لعدّة أيّام. لكن بعد مدّة، عاد إليّ... وقال لي إنّه وجد الغرفة. قال إنّه حلّ اللغز الذي كان يحميها. فسألته: وما هو اللغز؟ هاع! لقد كان أمام أعين الجميع! هاع! هذا ما قاله لي. وهل تعرفان لماذا قال ذلك؟ لكي يتحدّاني! ففي النهاية، كنت من خيرة المفهرسين». فتح الرجل ذراعيه مضيفاً: «ومن خلال بحثي عن تلك الغرفة، تحوّلتُ إلى هذا الرجل المسنّ المريض الذي ليس له رفيق سوى تمساح».

سأله جايسون: «لكن كيف أقنعك الرجل أنّ الغرفة التي لا وجود لها موجودة بالفعل؟».

«هاه، هاع! قال لي: عندما تجد الغرفة وتدخلها، ستجد رمز السلاحف الثلاث، وعندئذٍ ستعرف أنّني كنت أقول الحقيقة».

سأله جايسون: «السلاحف الثلاث؟»وتذكّر أنّهم رأوا ذلك الرمز على القنطرة التي تعلو الباب الذي دخلوا منه المغارة الموجودة تحت فيلّا آرغو.

«هل تعرفه يا طويل اللسان؟ هل سبق ورأيته من قبل؟».

أقرّ جايسون: «مرّة واحدة فقط».

«إذاً أنـــت أكثر حظّــاً منّي، لأنّني لم أعثر عليه قطّ. هذا على الرغم من أنّني بحثت لأشهر متتالية، وأهملت واجباتي كمفهرس، وجعلـــت زملائي يكرهونني. بحثـــت عن تلك الغرفة فقط لأثبت لذلك الرجل... ماذا؟ أنّني بارع بقدره؟ أنّني أعظم مستكشف على وجه الأرض؟ ما زلت لا أعرف الجواب، أيّها الفتَيان، ولكنّ الوقت مضى بســـرعة كبيرة. كان الغضب قد اســـتبدّ بي بســـبب إخفاقاتي المتكرّرة وأنا أفتّش الممرّات التي لا تعدّ ولا تحصى لبيت الحياة ليل نهار، إلى أن رسمت خارطة بكلّ الممرّات والسلالم السرّية، وبـــتّ أعـــرف كلّ زاوية وكلّ باب فيها». تســـارعت قصّة الرجل المســـنّ من دون انقطاع. «بفضل ســـنوات البحث تلك، أصبحت أعـــرف بيـــت الحياة مثل كفّ يدي، لكن الآن وقد تورّمت قدماي واستبدّ الألم بكاحليّ مع كلّ خطوة أخطوها، لم يعد لتلك الأسرار أيّ جدوى بالنســـبة إليّ. هاه! هاع! يمكنني أن أرســـل فتياني متى أردتُ... يمكنني أن أرســـلهم إلـــى أيّ مكان، إلى أيّ ممرّ، وعبر مئـــات الممرّات... ولكنْ ثمّة أمـــر واحد يمكنني أن أضمن عدم وجوده هناك، ألا وهو الغرفة التي لا وجود لها!». سأله جايسون: «وماذا عن الحريق؟ ما علاقة ذلك بهذه القصّة؟».

خفض مالك الدكّان رأسه، كما لو أنّ هذا السؤال جعله يتذكّر فجأة العبء الرهيب الذي حمله على كاهله لسنوات عديدة.

«في آخر مرّة ذهبت إلى المجموعة كمفهرس، كنت على قناعة

أنّني حللت اللغز. فقد كانت القصّة على كلّ شــفة ولســان، كما قال الرجل... وقد وجدت بالفعل شيئاً كان على كلّ شفة ولسان. واعتقدت، من يدري ما السبب، أنّني توصّلت إلى الاكتشاف نفسه. فهُرعــت إلــى بيت الحياة، إلى المكان الــذي ظننت، أنا الأحمق المســكين، أنّني ســأعثر فيه على الحلّ... أوه، أجل، هاع!» قال ذلــك وهو يضرب على ذراعَي كرســيّه. «ظننت أنّني كنت أعرف ماذا أفعل! كنت واثقاً أنّني على بعد خطوة من الحلّ!».

علا صوته فجأة وهو يضيف: «أمضيت الليلة في بيت الحياة وانتظــرت حلول الفجر. بعد ذلك حرّكتُ المرايا. التقطَت المرايا أشــعّة الشمس... وأدّت تلك الأشــعّة إلى إشعال أوراق البردي. هكذا اندلع الحريق. أجل، كان ذلك بسبب بحثي. كلّ الذنب كان ذنبي! ما إن اشتعلت أولى أوراق البردي، حتّى هبّت رياح شرّيرة، ألهبــت النــار وجعلتها تنتقل من كوّة إلــى أخرى، ومن لفافة إلى أخرى، ومن طاولة خشبية إلى أخرى. وسرعان ما اشتعل كلّ ذلك القسم من المجموعة، اشتعل تماماً!».

عندما تحدّث الرجل المسنّ مرّة أخرى، انخفض صوته حتّى بــات أقرب إلــى الهمس: «تمّ طردي من بيــت الحياة إلى الأبد، فلجــأت إلى هذا المكان، وكوّنت مجموعتي الخاصّة من الألغاز. كانــت مجموعتي الخاصّة من الأحلام المحطّمة، التي أبيعها إلى حمقى حالمين مثلي...» عاد أخيراً وميض الحيويّة إلى عينيه. «...

شرط أن يكونوا على استعداد ليدفعوا لي لقاء ذلك، بطبيعة الحال».

تبع كلامه صمت طويل.

سأله ريك: «ما كان... ذلك اللغز؟». كان قد استعاد أخيراً لونه الطبيعي وبدا أكثر حيويّة من ذي قبل.

قال صاحب الدكّان وهو يتحرّك على عرشه: «هاه! هاع! قلب الصخر يصغي، ولكنّه لا يفهم... ما من لغز على الإطلاق، وما من غرفة لا وجود لها!».

«لكنّك قلت إنّ الرجل الذي وجدها...».

صاح الرجل بقوّة بحيث ارتجف حبل تالوس: «لم يجد غرفة، لأنّ الغرفة لا وجود لها!».

أصرّ ريك: «لكنّك قلت إنّ الغرفة كانت محميّة بلغز، وكان اللغز على كلّ شفة ولسان... وظننتَ أنّك وجدته. ما كان ذلك اللغز؟».

«يبدو أنّك غبيّ جدّاً لتفهم، أيّها الفتى... ما من لغز في الأساس!».

نهض جايسون عن مقعده. «في تلك الحالة، نحن نضيع وقتك. شكراً لك لإخبارنا قصّتك. سنذهب لقراءة ورق بردي التأسيس».

انفجر الرجل ضاحكاً. «ولكن كيف؟ ورق بردي التأسيس قد احترق وتحوّل إلى رماد أثناء الحريق، بالإضافة إلى جميع الإشارات الأخرى إلى الغرفة التي لا وجود لها...».

ردّ عليه جايسون: «إذاً سنذهب إلى مكان آخر...».

أجاب مالك الدكّان بمكر: «... باستثناء مكان واحد...».

ثمّ بدأ يحكّ رأس تالوس ببطء.

في حديقة فيلّا آرغو، أخذ مانفريد يطلق التهديدات.

غطّت جوليا أذنيها.

«لماذا يصرخ؟ ماذا فعلنا له؟ من هذا الرجل يا نيستور؟».

كان مانفريد يجري حول المنزل كالمخبول، يبحث عن طريقة لدخوله. طرق على باب المطبخ، وعلى الباب الأمامي، ثمّ ضرب على نوافذ المدخل، لكنّ كلّ شيء كان مغلقاً.

تصاعد غضب نيستور مع كلّ هجوم جديد. غير أنّ البستاني كان يعرف جيّداً أنّه إذا واجه هذا المجنون شخصيّاً، فإنّ فرصه في التغلّب عليه ستكون ضئيلة.

هكذا فضّلت كلّ من جوليا ونيستور البقاء في الداخل في أمان المنزل، مثل شخصَين محتجزَين في قلعة محاصرة، في حين شنّ مانفريد هجماته الغاضبة على أبواب فيلاّ آرغو ونوافذها.

وكان الأمر أسوأ عندما توقّف عن الصراخ.

لم يلاحظا ذلك على الفور، ولكن عندما استمرّ الصمت

طويلاً، غامرت جوليا قائلة: «يبدو أنّه رحل!».

لكــن ما إن خرجت إلى المدخل، حتّى رأت أنّ الســيّارة ما زالت متوقّفة في الفناء.

لم يتفوّه نيستور بكلمة واحدة، بل ظلّ على مقربة منها يرافقها كخيالها، وذراعاه مشدودتان إلى جانبيه، ووجهه متصلّب من شدّة الغضب. جعلته تلك المشاعر يبدو هشّاً للغاية، وللمرّة الأولى منذ وصول جوليا إلى فيلّا آرغو، أدركت أنّه كان مسنّاً.

سألته: «ماذا تعتقد أنّه فاعل؟».

مــن دون أن يجيبهــا، صعــد نيســتور الســلّم، وفتح الباب المكسوّ بالمرايا المؤدّي إلى البرج. دخل الغرفة ونظر إلى الحديقة من جميع النوافذ.

تبعته جوليا حتّى الباب، وتناهى إليها صرير من داخل الغرفة، أو ربّما من العلّية.

لاحظت الفتاة أنّ أحدهم استعمل إسفيناً خشبياً لتقوية المزلاج المكسور على نافذة البرج. سألته مجدّداً بصوت ضعيف: «من هذا الرجل، يا نيستور؟».

«إنّها قصّة قديمة».

«أخبرني بها».

«ليس الآن، يا طفلتي... ليس...».

أصرّت جوليا: «أخبرني بها».

ارتفع عويل الرياح حول البرج كما لو أنّها تسعى إلى اقتلاعه.

قال نيستور: «كانت غلطة، غلطة ارتكبتها السيّدة مور منذ وقت طويل جدّاً، عندما أرادت أن تجعل خليج كيلمور عصريّاً أكثر».

«عصرياً؟ عندما أتينا أنا وجايسون إلى هنا للمرّة الأولى، ظننّا أنّ الزمن قد توقّف هنا في القرن الماضي».

ضحك البستاني، ثم خرج من البرج وهو يعرج، متوجّهاً نحو النوافذ الأخرى للمنزل. «أنا آسف لأنّني خيّبت ظنّك، ولكنّ هذا ليس صحيحاً على الإطلاق. فالزمن، مع الأسف، ما زال ينقضي بشكل لا يصدّق».

لحقت به جوليا إلى غرفة والدَيها. كان نيستور قد فتح النوافذ الخشبية وأطلّ على الرغم من المطر، بانتظار مرور ضوء المنارة مجدّداً لكي يرى بوضوح أكبر.

حدّقت جوليا إلى الغرفة التي يكتنفها الظلام، وحاولت أن تتذكّر أثاثها، بالسرير الكبير وأعمدته الأربعة الزمرّدية واللوحات القديمة على الجدران التي تنبض بلون أصفر مشرق.

سألته: «وما الخطأ الذي ارتكبته؟».

وقف نيستور هناك للحظات أخرى ينظر من النافذة قبل أن يقرّر إغلاقها والإجابة عن سؤالها. «قامت السيّدة مور بدعوة بعض الأشخاص لتناول الشاي. ولم يجد السيّد مور الفكرة جيّدة، ولكنّ

الآنســة... آه، الآنســة كانت شخصاً جديراً جدّاً بالثقة... بعد تلك الدعوة، لم يعد من الممكن إخراجهم من المنزل».

أومأت جوليا برأســها وسألته: «وهل كان ذلك الرجل واحداً من هؤلاء الناس؟».

«إنّه السائق، أجل... لكنّه مجرّد رجل سخيف، أو على الأقلّ، هذا ما ظننت...».

عبر نيستور الغرفة، وذهب ليطلّ من الجانب الآخر من المنزل.

«إذاً، سبق وجاء إلى هنا؟».

تصاعد عويل الرياح المثقلة بالمطر.

«عــدّة مرّات، لكن لم يُســمح له قــطّ بالدخول. كان يكتفي بإيصــال ســيّدته، أوبليفيا نيوتن، إلــى هنا. هي من دخلت، ولكن لمرّة واحدة فقط. بعد ذلك، لم يُسمح لها بالعودة على الإطلاق. وكان ذلك دائماً للسبب نفسه».

لحقت به جوليا وأطلّت إلى الخارج. فجأة، فهمت كلّ شيء.

«ســنخبر أمّي وأبي بذلك، يا نيســتور. لا تقلق، لن نبيع هذا المنزل أبداً».

«أحسنت يا عزيزتي. أحسنت».

سُمع من الحديقة صوت أشبه بالانفجار.

تمتم البستاني وقد عرف مصدر الصوت: «هذا كوخ العدّة... يبدو أنّه يحاول دخوله!».

الفصل 15

- تسليم أمانتَين في بونت -



بمجــرّد الخروج من دكّان الخرائط الضائعة من زمان، صاح ريك: «جايسون، لا يمكننا ذلك!».

توقّف جايسون لإلقاء نظرة على خارطة مدينة بونت المرسومة في دفتر يوليســيس مور. «لماذا لا تكفّ عن الشــكوى وتحاول مساعدتي في قراءة الخارطة؟ أنا لا أفهم شيئاً. سأحمل هذه الرزمة التافهة، إذا أدرت».

«المشكلة أنّ هذه الرزمة التافهة تحتوي على الأشياء الوحيدة التــي بقيــت لدينا من خليج كيلمور. وإذا واصلنا التقدّم على هذا المنــوال، فإنّها ســتكون الأشــياء الوحيدة التــي تبقّت لدينا على الإطــلاق. فــي الواقع، في غضون بضعة آلاف من الســنين، من المحتمل أن يقوم عالم آثار باســتخراجها من رمال صحراء، ولن يتمكّن من معرفة سبب وجودها هناك!».

تأفّف جايسون قائلاً: «أوه، لا تغضب! أنت تتصرّف تماماً مثل أختي».

«ربّما لأنّ أختك تتمتّع بشيء من الحسّ السليم!».

«لكنّنا توأمان».

«وماذا في ذلك؟».

«من المحتمل جدّاً أن نكون قد ولدنا بالقدر نفسه من الحسّ السليم».

«إذاً، ربّما لم يكن موجوداً بقدر كافٍ في الأساس!» قال ريك

ذلك وثبّت الرزمة على كتفه، ثمّ مدّ يده مجدّداً للتحقّق من الأمانة المربوطة بحزامه.

«حسناً، ثمّ في اللحظة التي أرى فيها أختي، سأحرص على إخبارها...».

هتف ريك وهو يخرج مذكّرات يوليسيس: «إيّاك أن تفعل يا جايسون!».

«وأنت انتبه لما تقول! ألم تسمع ما قاله لنا صاحب الدكّان؟».

«بالتأكيد سمعت. قال: هاه! هاع! ثمّ بصق في ذلك الحوض!».

تأمّل ريك الرسم الموجود في اليوميّات ثم نظر حوله بعصبيّة. مرّ رجال ونساء يرتدون ملابس زاهية الألوان من دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء النظر نحوهما. احتلّت وسط الساحة مسلّةٌ تقاطعت عندها الطرق الترابية الأربع، ومرّت أقنية المياه في وسطها. «أين تعتقد أنّنا الآن؟».

أجاب جايسون: «هاه! هاع!».

حاول ريك الحفاظ على جدّيته، لكنّه وجد نفسه يبتسم رغماً عنه. وعندما تلاشى غضبه تماماً، بدأ يتجوّل وهو يؤرجح ساقيه.

«هاه! هاع! تالوس، تعالَ إلى هنا! ربّما نجد مهمّة لطيفة نكلّف بها هذين الصبيّين».

«هاع!».

انفجر الولدان بالضحك، ثم وضع ريك المذكّرات من يده،

قائلاً: «إذا كانت هذه هي المسلّة، فيجب أن يكون الميناء في هذا الاتّجاه».

كانت الاتّفاقية التي توصّلا إليها مع الرجل المسنّ بسيطة للغاية. سيوصلان له أمانتَين، وسيكشف لهما بالمقابل الدليل الوحيد المتبقّي على وجود الغرفة التي لا وجود لها.

«توصيلتان فقط، هذا كلّ شيء. يمكنكما الاحتفاظ بالبقشيش، ولن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً. هاه! هاع! هذا... إن كنتما حقّاً من بونت».

وافق الولدان، وها هما يحملان الآن طردَين من الجلد يحتويان على العدد نفسه من الخرائط. كان عليهما تسليم الأوّل إلى قبطان سفينة فينيقية على وشك الإبحار إلى ميسينا. أمّا الثاني فكان إلى سيمو، أي طبيب، ينظّم رحلة استكشافيّة للبحث عن مكوّنات جديدة لعلاجاته.

لم يكن من الصعب العثور على الميناء. فإلى شرق المسلّة، انحدرت مدينة بونت نحو سلسلة من الأرصفة التي تشقّ طريقها إلى مياه النيل المتلألئة. عندما مرّا بمنازل من الطوب الخام والعربات التي تجرّها الثيران، أصبح الهواء أكثر عذوبةً. بعد ذلك اليوم الحارّ بشمسه الكاوية، كانت الشمس قد بدأت تغرب، فيما

هبّ نسيم عليل من ناحية الماء. وكان ذلك النسيم هو الذي جعل الشكوك الأولى تساور جايسون.

قال وهو يسير بجانب ريك: «إنّه مالح، لا يجب أن يكون مالحاً».

لم يجبه ريك. كان منشغلاً للغاية بالتأكّد من أنّهما يسلكان الاتّجاه الصحيح.

قال أخيراً عندما وصلا إلى الشاطئ: «أنت على حقّ. هذه مياه البحر... ».

هكذا اكتشفا أنّ أرض بونت لم تكن تقع على ضفاف النيل، بل على ضفاف البحر الأحمر.

كانت السفينة الفينيقية التي يقصدانها لإيصال الأمانة الأولى ذات هيكل مدبّب وقوس ذكّر الولدين بهيكل الميتيس النحيف. حيّاهما القبطان بضحكة مرحة، وكان رجلاً من لبنان، ذا شعر أسود طويل ووجه لوّحته الشمس.

«إذاً، هذان هما صبيّا الدكّان الجديدان! حسناً إذاً، هل تمكّن سيّدكما من إصلاح خارطتي؟».

أعطاه ريك لفافة البردي قائلاً: «إنّها سفينة جميلة يا سيّدي»، وراح يتأمّل الصواري والمجاذيف بعينَي خبير.

سأله جايسون: «إلى أين وجهتكم؟».

«ميناء ميســينا، سنبحر على طول ســواحل الأراضي الواقعة بيــن...» فــرد الرجل ورق البــردي عند أقدامهمــا، وعلق قائلاً: «حسن... حسن... عمل ممتاز».

طارت حفنة من الدِّبن من جيوبه وحطّت في أيدي الولدين.

بعــد لحظــات، بادلا تلك النقود بلفافتيــن من الخبز الخالي من الخميرة المحشــوّ بمزيج ســاخن من لحم الضأن، والتوابل، والخضروات، وأسماك البحر الأحمر الطازجة.

أخذ جايســون وريك استراحة، فجلسا على الرصيف وتدلّت أقدامهمــا فوق الماء. وبينما كانا يلتهمان وجبتيهما، راقبا الســفن الشــراعية التي توجّهها أعمدة خشــبية طويلة، وأعجبا بأســطول الفرعون الذهبي، الذي كان يرسو في وسط الميناء تماماً.

كان الطعام الشهيّ من أطيب ما تناولاه طوال حياتهما.

بعد ذلك بفترة وجيزة، وكان العطش قد استبدّ بهما، عادا إلى المسلّة، وتوجّها إلى الحيّ الذي يعيش فيه الطبيب.

اكتشــف ريك أنّه كان يجد طريقه في أرجاء بونت بســهولة كبيرة. فقد كان من الممكن رؤية الجدران الضخمة لبيت الحياة من كلّ التقاطعات تقريباً، وكذلك الأمر بالنســبة إلى البحر من الجهة المقابلة. وكانت الطرق متعامدة بالنسبة إلى بعضها البعض وبالنسبة إلــى الطرق الأكبر المتفرّعة من مختلــف الأحياء. كانت المنازل

الأصغر حجماً مملوكة من البنّائين، والمنازل المنخفضة المنتشرة على أطراف المدينة للمزارعين. أمّا المنازل الفخمة، المكوّنة من طابقين أو ثلاثة، فكانت تنتمي إلى الموظّفين الحكوميين والكهنة وبالطبع الأطبّاء.

أثنــاء البحث عن صاحــب الأمانة، صادف الولدان حشــداً صغيراً من الناس الذين تجمّعوا حول موســيقيَين ينشــدان أغنية العاشقَين. كان الأوّل قد طلى وجهه باللون الأبيض، وراح يعزف على آلة وترية، وينفخ من وقت إلى آخر في مزمار خشبي حزين. أمّا الثاني، فكان يرتدي ملابس ســوداء بالكامل، وقد طلى وجهه بالطين الداكن، وانهمك يهزّ بشــغف الدفوف وألواح الصفيح أو الخشخيشة.

أصغى جايسون وريك إلى بعض مقاطع الأغنية قبل أن يدركا أنّها أسطورة العاشقَين اللذين ضاعا في بيت الحياة.

علّق جايسون عندما تركا حشد الناس خلفهما: «لم أفهم يوماً سبب كون أغاني الحبّ حزينة دائماً... إذا لم يمت أحد العاشقَين، فلن يصغي إليها أحد إطلاقاً».

لــم يجبــه ريك. فقد كان يدرك تماماً كم عانت والدته عندما فُقد والده في البحر. وشــعر أنّه كان بغنى عن ســماع أغنية الحبّ الجميلة تلك.

وجدا منزل الطبيب بالقرب من صفّ من الناس الجالسين في طابور في الفناء الخارجي. كان المرضى من رجال ونساء وأطفال وكبار في السنّ ينتظرون بصبر دورهم للفحص أو العلاج.

أعلن ريك وجايسون أنّهما رسولان، ومرّا بهم جميعاً، ثمّ دخلا المنزل.

وصلا إلى غرفة عابقة بالعطور ومليئة بأحواض المياه التي يشرف عليها ولدان حليقا الرأس. احتوت الغرفة أيضاً على صفّ من النباتات المتنوّعة وسلسلة من المرطبانات المملوءة بالمساحيق. كُتب عليها بالهيروغليفية أسماء محتوياتها من شبّ، ونحاس، وأكسيد حديد، وكالسيوم، وكربونات صوديوم، وبيكربونات، وكبريت، وزرنيخ، وكربون. بينما احتوت مرطبانات أخرى على الشراب المخمّر، والعسل، والنخاع الشوكي، والطين السائل.

كان الطبيب رجلاً ممتلئ الجسم ووورديّ الوجه، انهمك بتحضير كمادة لسيّدة جرحت ذقنها. عندما رآهما يدخلان، تعرّف فوراً إلى ورق البردي الذي كان يحمله جايسون بيده.

نسي الطبيب تماماً أمر المرأة وجرحها، وهتف قائلاً: «الخارطة! الخارطة! ظننت أنّها لن تصل أبداً!».

أخذها من يد جايسون، ومن دون أن يكلّف نفسه عناء النظر إليه، بدأ يقرأها بنهم بصوت عالٍ.

تنحنح جايسون، إلى أن تمكّن أخيراً من مقاطعة الطبيب.

«قيل لنا إنّنا سنحصل على بقشيش عند التسليم...».

قال الطبيب بحدّة وقد ازداد وجهه احمراراً: «بقشيش؟ بقشيش لقاء خارطة غير مكتملة... وتأخّر تسليمها؟ يجب أن تكونا شاكرَين لأنّني لم أقم بجلدكما! والآن، اخرجا!».

أسرع الاثنان إلى الخارج. ولكن ما إن خرجا، حتّى قال جايسون لجميع المرضى المنتظرين في الطابور أن ينهضوا ويدخلوا لأنّ الطبيب قال إنّه سيعالجهم جميعاً مجّاناً.

سألت أوبليفيا نيوتن محاولة أن تقاوم ارتعاشها: «هل علينا فعلاً أن نصعد في هذا... هذا الشيء؟».

كان الرجل الساكن تحت الأرض قد اصطحبهما إلى ما يشبه الحفرة العمودية التي تتّجه عميقاً إلى الأسفل بحيث لم يستطيعا رؤية القعر. تفرّعت مئات الأروقة من جوانبها، وارتبط بعضها ببعض بالبكرات، والألواح المائلة، والناقلات المصنوعة من الخشب أو الحبال، وجميعها معلّقة في غابة من الحبال المترابطة.

وجدت أوبليفيا ومرشدَيها أنفسهم أمام عربة خشبية. كانت عبارة عن منصّة أكبر بقليل من أغطية المجارير، ومربوطة بأربعة حبال.

قال الرجل الساكن تحت الأرض: «أجل، علينا اسسستخدامها»، ودعا المرأة إلى الصعود على متنها. امتدّت الحبال التي عُلّقت بها المنصّــة على طول الحفــرة، والتي بدا من طرفها الآخر نفق أكثر ظلامــاً مــن ذاك الذي أتوا منه. «ما تبحثين عنه موجود هناك، على الجانب الآخر. ولكن لكي تسسستخدمي وسسسائل النقل، يجب أن تدفعي الثثثمن».

نظرت أوبليفيا إلى الشابّ المصري الذي ابتسم لها بانقباض. «سأتركك تذهبين بمفردك، وهكذا ستوفّرين بعض المال».

أجابته بسخرية وهي تبحث عن مزيد من الدبن: «لطيف، لطيف جدّاً...». كانت بالكاد قد أخرجت النقود من جيبها عندما مدّ الرجل يده واختطفها منها بسرعة هائلة.

«حسسسناً... الآن يمكنك اسسستخدام وسسسيلة النقل».

وضعت أوبليفيا طرف قدمها على اللوح الخشبي، الذي صرّ ومال بخطورة جانباً، كما لو كان على وشــك السقوط في الهاوية المظلمة. «لا شكّ أنّك تمزح! هذا الشيء لن يحتمل وزني إطلاقاً!».

همس الرجل الساكن تحت الأرض: «بلى، سسسوف يحتمل وزنك. تمسّسسكي بالحبل».

أمسكت أوبليفيا بالحبال بحذر لترى مدى متانتها.

أعلــن الرجل: «والآن، سسســنطلق»، ودفع المرأة على متن العربة.

ثــمّ، ومن دون أن يمنحها الوقــت للصراخ، قفز على اللوح

الخشبي إلى جانبها وأفلت الفرامل، فانخفضت العربة إلى الأسفل. راحت تئنّ وتميل وهي تشقّ طريقها بشكل مخيف على طول الحبل الرئيسـي الذي لم ينقطع بأعجوبة. وسرعان ما وجدت أوبليفيا نفسها على الجانب الآخر من الحفرة، في نفق دامس الظلام تقريباً.

اعتادت عيناها على الظلام تدريجيّاً، لتجد أنّ النفق مليء بالجرار الترابية.

اشتمّ الرجل الهواء، ثمّ شقّ طريقه عبر صفّين من المزهريات العملاقة. قال لها: «تعالي معي، إذا أحببتِ... ولكن احذري أين تدوسسسسين».

قبل أن تتبعه أوبليفيا، استدارت إلى الخلف، فلوّح لها دليلها الشابّ بسخرية من الجانب الآخر من الحفرة. كانت مصمّمة على عدم إرضائه برؤيتها مرعوبة، فاستدارت نحو الظلام، وشرعت تتبع الرجل بخطى واثقة.

لكن عندما وطأت قدمها الأرض، حطّت على شيء ليّن، صدر عنه صوت صرير وفرّ من تحت قدميها الحافيتين.

حاولت أوبليفيا نيوتن بشكل يائس أن تصرخ، لكنّها لم تستطع إصدار أيّ صوت، بل وقفت في مكانها على قدم واحدة، مثل طائر النحام.

قال لها الرجل بصوت كالهسيس، وكان قد سبقها بضعة أمتار في الظلام: «لا تخافي، فالجرذان الموجودة هنا صصصغيرة جدّاً... كما أنّها تجري بسسسرعة عندما تسسسيرين ببطء. أمّا العناكب،

فليسسست سسسريعة في الجري. ما عليك إلّا أن تسسسحقيها».

شهقت أوبليفيا وقد بدأت تسمع الدبيب الهائج لآلاف الأرجل الصغيرة من حولها: «أنا...».

تابع الرجل يقول: «يا للمخلوقات الصصصغيرة المسسسكينة. بما أنّها سسسسجينة في هذا المكان فهي في بحث دائم عن شـيء تأكله... لكنّها ليسسست خطرة!».

«أنا... أنا أريد الخروج من هذه الحفرة المرعبة فوراً!».

رفع الرجل غطاء إحدى الجرار وهتف قائلاً: «ها هي! أعتقد أنّني وجدت شيئاً!».

لكنّ أوبليفيا كانت قد غابت أساساً عن الوعي وسقطت على الأرض مغشيّاً عليها.

عندمـا فتحت عينيهـا مجدّداً، كان أوّل ما فعلته هو النهوض على قدميها للتأكّد من أنّه ما من جرذان تمسـك بطرف تنّورتها. عندما نظرت حولها، اكتشـفت أنّها قد عادت أساسـاً إلى النفق الأوّل، ذاك الذي تضيئه مشاعل زيت الخروع.

كان الشـابّ المصري واقفاً أمامها، أمّا الرجل الساكن تحت الأرض، فكان يعدّ بعض القطع النقدية.

«هل كلّ شي على ما يرام؟».

حاولت أوبليفيا الحفاظ على رباطة جأشها. «كلّا، ما من شيء على ما يُرام! أنا لا أحتمل الجرذان!».

همــس الرجل وهو يقترب منها: «إنّها مخلوقات صصصغيرة مسسسكينة... مخلوقات صصصغيرة مسسسكينة».

هزّت أوبليفيا نيوتن رأســها، في محاولة للتخلّص من ذكرى تجربتها المرعبة... بعد ذلك، تحسّست جيوب ثوبها لتكتشف أنّ القطع النقدية قد نفدت منها.

هسّ الرجل مستبقاً سؤالها: «صصصحيح... لقد دفعتِ أيضاً ثمن رحلة العودة... لكنّها كانت مفيدة، أليس كذلك؟» ثمّ سلّمها قطعــة داكنة كبيرة كُتبت عليها سلســلة من الأحرف الهيروغليفية بالحبر الأحمر.

قرأت أوبليفيا: «مكان المنشأ: خليج كيلمور».

حملقت بعينيها وهي تنظر إلى الرجل الذي كان يحكّ رأسه الذي يشــبه الإجاصة. «كنت أعلم أنّ ثمّة شــيئاً ما في الأرشــيف المدفون».

فتحــت أوبليفيا قطعة البــردي بأصابع متلهّفة، فتطايرت منها ســحابة من الغبار. كانت تحتوي على شيء صغير ورقيق مصنوع من الورق. بطاقة عمل.

سألها الشابّ: «أهذا ما كنت تبحثين عنه؟».

قلبــت أوبليفيــا نيوتن بطاقة العمل على ظهرها. كانت الجهة الخلفية محترقة.

أجابــت غاضبــة: «كلّا! ليــس هذا ما كنــت أبحث عنه على الإطــلاق! لقــد قطعت كلّ هذه المســافة لأجد ماذا؟ هذه البطاقة



الصغيرة؟! أنا أعرف أساساً عنوان غويندالين، ولم أكن بحاجة إلى السفر إلى مصر!».

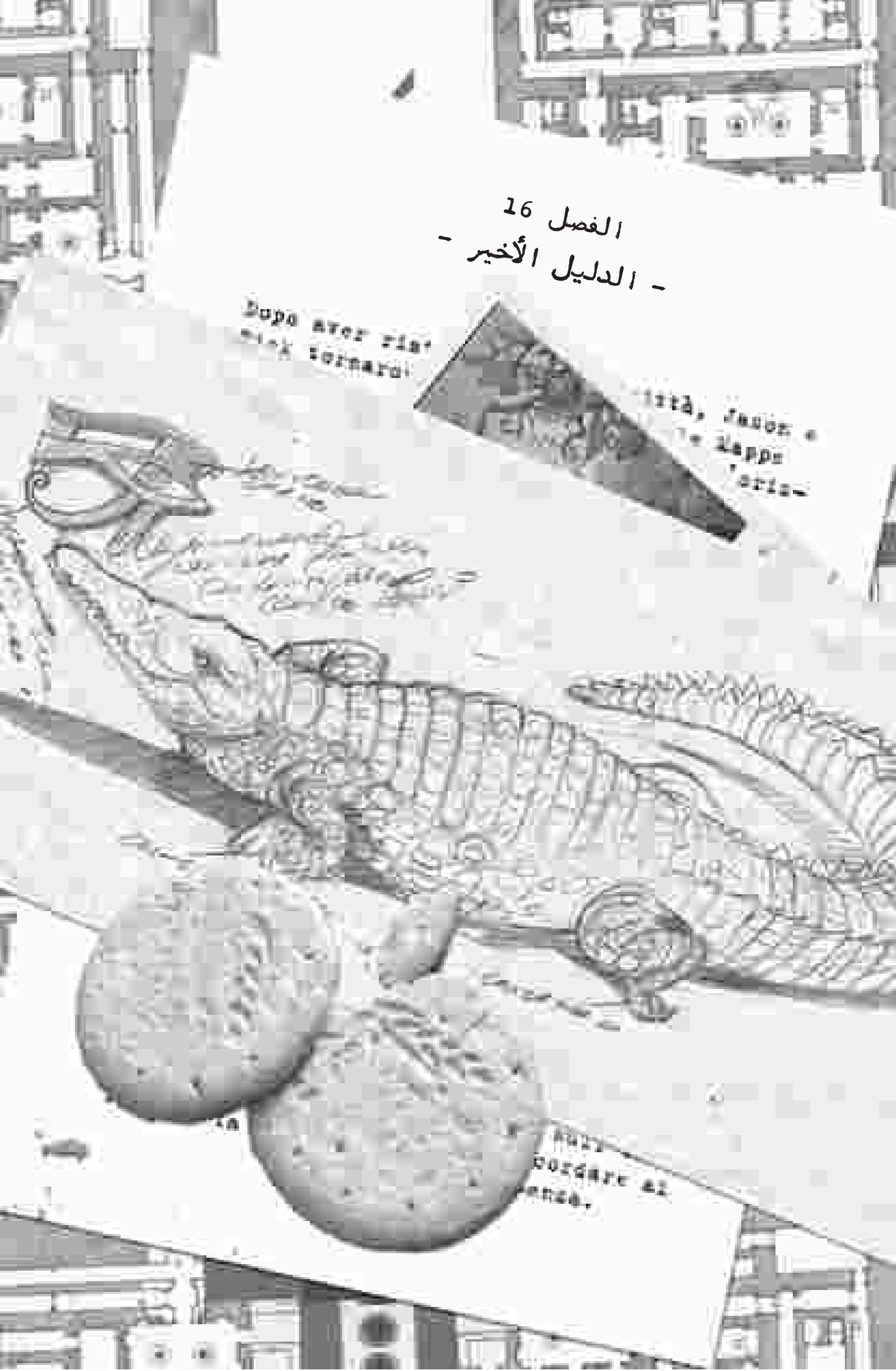
خفض الرجل رأسه بحزن.

«على أيّ حال، هذا كلّ ما في الأرشيف...».

هذا كلّ ما في الأرشيف؟ بطاقة مصفّفة شعر؟ شدّت أوبليفيا قبضتيها، وقد أعماها الغضب. لماذا ظنّت أنّها ستعثر على خارطة خليج كيلمور هنا؟ كم هي غبيّة! لم تكن هذه البطاقة سوى دليل آخر على أنّ السيّد والسيّدة مور قد أتيا تكراراً لزيارة بيت الحياة وأكثر أروقته عمقاً وظلاماً. لقد تعرّضت لخدعة قاسية.

استدارت أوبليفيا نحو دليلها وصاحت: «فلنخرج من هنا حالاً! أريد التحدّث إلى سيّدك! فوراً!».

الفصل 16
- الدليل الأخير -



بعد أن عاد جايســون وريك من الجانب الآخر من المدينة، توجّهــا إلــى دكّان الخرائط الضائعة من زمان. كانت الشــمس قد انخفضت نحو الأفق وبات الدكّان أعتم من ذي قبل.

وجدا الرجل المسنّ بانتظارهما، جالساً في المكان نفسه. إلى جانبه، قبع تالوس بلا حراك. تصاعد في الهواء مزيج من الروائح المختلفــة: عفــن، وبخور، ورائحة قوية وحلوة لم يســتطع ريك تحديد مصدرها.

شــرح جايسون للرجل المسنّ أنّهما سلّما الأمانتين، فقال إنّ الوقت قد حان ليفي بجانبه من الصفقة. أخذ نفساً عميقاً، ثمّ تحرّك بانزعاج على عرشــه. من الواضح أنّه فوجئ بالسرعة التي أتمّ بها الولدان مهمّتهما.

«هاع! لقد تحدّث طويل اللســان، وطويل اللسان محقّ. عليّ أن أتكلّم. ما الذي تريدان معرفته؟».

«فقــط ما وعدتَ بإخبارنا به. الدليل المؤدّي إلى الغرفة التي لا وجود لها».

تنحنح الرجل، وبصق في حوضه بصوت عالٍ. «هاع! أما زلتما مقتنعَين أنّ خارطتكما مخبّأة هناك؟».

«أجل، نحن مقتنعان».

«ولــم يخطر ببالكما أنّني ربّما أكون قد كذبت عليكما، لكي أجعلكما تسلّمان الخارطتَين؟ ألم تفكّرا قطّ أنّ هذا الرجل المسنّ

البغيض... هاع! ربّما خدعكما؟ فأنتما تعرفان كيف أدير عملي».

أجاب جايسون: «لقد فكّرنا في ذلك، ولكنّنا عرفنا أيضاً أنّك لن تفعل شيئاً بالدليل، لأنّ سنّك لا يسمح لك بالذهاب للبحث عبر الغرفة بنفسك، ولأنّك لم تقم حتّى الآن بطلب ذلك من أحد الفتيان العاملين لديك».

«هاع! أحسنت يا طويل اللسان...». حرّك تالوس ذيله، مذكّراً الولدين بوجوده المخيف. «أنتما ولدان غريبان، ولستما مخطئَين بالتفكير أنّني متعب للغاية للذهاب بنفسي. بالإضافة إلى ذلك، لقد احتفظت بالسرّ لوقت طويل جدّاً... ولم يعد لذلك أيّ فرق الآن. هل تعرفان أغنية العاشقَين؟».

أومأ جايسون وريك برأسيهما. كانا قد استمعا إلى جزء منها خلال رحلتهما عبر المدينة، قبل الوصول إلى منزل الطبيب.

تابع الرجل المسنّ: «بطبيعة الحال... فالجميع هنا في بونت يعرفونها. إنّها على كلّ شفة ولسان. حسناً، ظننت أنّ حلّ الأحجية موجود في المقطع الأخير من تلك الأغنية. هاع! لكن حذارِ...».

لم يجد الرجل الفرصة لإنهاء جملته. فقد ودّعه الولدان على عجل، واختفيا خلف الستارة عند الباب.

«كونا حذرَين... لأنّ اعتقادي أنّ حلّ الأحجية موجود في ذلك المقطع هو ما دفعني إلى إضرام النار في المجموعة...». قال مالك الدكّان المسنّ ذلك والحزن يشوب صوته.

لم تكد الستارة تنسدل، حتّى فُتحت مجدّداً من الجانب الآخر للدكّان. كانت الستارة تخبّئ غرفة صغيرة خرج منها شخصان.

تذمّـــرت أوبليفيا قائلة: «قحّ! قـــحّ! رائحة هذا المكان كريهة جدّاً!».

عادت ملامح الســـخرية والقســـوة المعتادة إلى وجه الرجل المسنّ. قال بصوت خشن وهو يمرّر يده بين عيني التمساح: «هل سمعتَ ذلك، يا تالوس؟ غرفتك لم تعجب السيّدة...».

توجّهت أوبليفيا نيوتن نحو الباب، ثمّ رفعت الســـتارة بحذر وأخذت نفساً عميقاً. هتفت وهي تمسح فمها تكراراً بظاهر يدها: «هواء!».

في اللحظة التي عادت فيها لتنظر إلى الرجل المسنّ، انتفض تالوس بعصبيّة.

حذّرهـــا صاحب الدكّان قائـــلاً: «هاع! لا أنصحك بالاقتراب شبراً واحداً. هل ألقيتِ نظرة على الولدين؟».

أجابت أوبليفيا بإيماءة من رأسها.

«إذاً؟».

«أنـــا أعرفهمـــا. لكن كان ينبغي أن يكونوا ثلاثة. ثمّة بعد فتاة صغيرة... ليست معهما. إنّها شقيقة الصبيّ الأصغر التوأم».

ضحك مالك الدكّان قائلاً: «طويل اللسان لديه شقيقة توأم... هاع!».

«أيّ طويل لســان هذا الذي تتحدّث عنه؟ اســمه جايســون، جايسون كوفيننت. والآخر... الآخر هو ريك بانِر، إنّه شقيّ صغير من البلدة، ابن صيّاد».

حذّرها الرجل قائلاً: «انتبهي لكلامك أيّتها المرأة! أنا وتالوس كلانا ابنا صيّادَين! أليس كذلك يا تالوس؟».

كشّــر تالوس عــن أنيابه، وضرب بذيله الثقيــل تكراراً على الأرض.

تذمّرت أوبليفيا قائلة: «هما من سرق الخارطة بعد أن وصلت اللقمة إلى فمي!».

قال الشابّ الذي كان يرافقها: «ما كنت لأقول ذلك... فبحسب ما سمعنا، يبدو أنّهما ما زالا يبحثان عنها هما أيضاً».

«لم يطلب أحد رأيك!».

علّق الرجل المســنّ مستمتعاً بالعرض من على عرش الوسائد القديمــة الــذي يجلــس عليه: «هاه! هاع! امرأة هســتيرية وشــابّ يتجادلان... قد يصبح هذا أكثر أيّام العام إثارة للاهتمام، يا تالوس...».

تركهما يتشــاجران لفترة من الوقت، ثمّ قاطعهما بتصفيق من يديــه. «أنتما الاثنــان بحاجة إلى بعض التنظيم. هذا بالإضافة إلى حذاء للسيّدة، بالطبع، إذا كنت ترغبين باللحاق بهذين الولدين... فطويل اللسان وقلب الصخر مقتنعان أنّ الخارطة مخبّأة في الغرفة التي لا وجود لها. وقد انطلقا للتوّ بحثاً عنها».

ألقت أوبليفيا عليه نظرة اشمئزاز. «هل تقصد أنّ الدليل الذي أعطيتهما إيّاه حقيقي؟».

تحرّك الرجل على عرشه. «هاه، هاع! أقسم أنّ هؤلاء الغرباء لا يفقهون حرفاً هيروغليفياً واحداً! كيف أتواصل معكم أيّها الناس؟ ما من دليل صحيح لأنّ الغرفة التي لا وجود لها غير موجودة!».

الفصل 17

- أغنية العاشقَين -



هتفت ماروك: «بالطبع أنا متأكّدة! هذه مجرّد أغنية، لا أكثر».

كانوا قد اجتمعوا مجدّداً، وجلسوا حول إحدى النوافير. من هناك، أمكنهم مراقبة كلٍّ من مخازن بيت الزوار، في حال ظهرت جوليا، وبيت الحياة، في حال ظهر والد ماروك.

بينما كان ريك وجايسون يسلّمان الأمانتين، نزلت ماروك إلى المخازن، وهناك تأكّدت من أنّ أحداً لم يقم بإزاحة اللوح الذي استعملوه لتغطية الفتحة الموجودة في الحائط. وكانت في تلك اللحظة تنكر بشدّة فكرة كون الدليل الذي أعطاهم إيّاه صاحب الدكّان يمكن أن يفضي إلى أيّ شيء.

«لكن أنت نفسك أخبرتنا أنّه ما من أحد استكشف المجموعة بأكملها. ثمّة آلاف وآلاف الممرّات، فما المانع من وجود الغرفة التي لا وجود لها هناك؟».

أشار ريك بعد قيامه بسلسلة من العمليّات الحسابية في دفتر ملاحظاته: «لنكون دقيقين، تضمّ الأسوار وحدها عشرة آلاف وستمائة وثمانية وأربعين رواقاً، أو اثنين وعشرين قسماً ضرب اثنتين وعشرين غرفة ضرب اثنين وعشرين رواقاً... ما يعني أنّه علينا استكشاف...».

قال جايسون متجاهلاً إيّاه: «هذا ناهيك عن الممرّات السرّية، إذ قال صاحب الدكّان إنّه يعلم بوجود مئات وحتّى آلاف منها! ولا بدّ أنّ تلك الجدران بنيت على مراحل مختلفة، وقد يكون كلّ

رئيس بنّائين قد أخفى سرّه الصغير، ربّما كوّة، أو درج إضافي...».

أقرّت ماروك: «هذا ممكن...».

تابع ريك: «خمسمائة وثلاثة وخمسون ألفاً وستمائة وستّ وتسعون كوّة! حتّى لو أمضينا دقيقة واحدة في استكشاف كلّ كوّة...».

«إذاً؟ لماذا لا تصدّقيننا؟».

ابتسمت ماروك وهي تلفّ جديلتها حول إصبعها. «ما علينا سوى التحدّث إلى والدي للتأكّد من أنّ الغرفة التي لا وجود لها موجودة بالفعل. على أيّ حال، أنا لا أعتقد أنّ الطريقة الوحيدة لإيجادها تكمن في قراءة قصيدة العاشقَين. فصاحب الدكّان الذي أخبركما بذلك لصّ، لا بل من أسوأ اللصوص. ولو ذكرتما اسمه لأحد المسؤولين في مبنى المجموعة، فإنّه سيرسم علامة حورس لدرء الحظّ السيّئ. أنتما لا تعرفان شيئاً عنه! إنّه المفهرس الشرّير، ذاك الذي أضرم النار في قسم كامل من المستندات! إنّه وحش، وهو لم ينجح في تجنّب الحكم بالإعدام إلّا بفضل شبكته من الاتّصالات وكلّ الأسرار التي يعرفها. هكذا استطاع أن يبقى على قيد الحياة ويفتح دكّانه. كذلك، أعذراني، ولكن كيف يمكن أن يكون ذلك صحيحاً على أيّ حال؟ أنا أعني أنّها مجرّد أغنية! والأهمّ أنّها أغنية نعرفها جميعاً!».

«في بعض الأحيان، تكون أفضل طريقة لإخفاء شيء ما أن تضعيه أمام أعين الجميع!».

هتف ريك وهو يضع القلم من يده بقوّة: « العثور على الغرفة التي لا وجود لها سيســتغرق علميّاً ســبعمائة وثمانية وستّين يوماً، وذلك فقط لتفتيش الجزء الرئيس داخل الأســوار». وعندما لاحظ نظرات الذهول على وجهَي جايســون وماروك، أضاف: «إذاً، ماذا كنتما تقولان؟».

شــرحت ماروك: «تتحدّث أغنية العاشقين عن شخصين قرّرا في أحد الأيّام تفتيش البيت بحثاً عن معنى الحياة. لكن في اللحظة التي انطلقا فيها، دخل الرجل أحد الممرّات، ودخلت المرأة ممرّاً آخر. ومن تلك اللحظة، بقي الاثنان يهيمان على وجهيهما من دون أن يجد أحدهما الآخر ثانية...».

قال جايسون: «هذا يعني أنّه من المستحيل العثور على معنى الحياة».

صحّح له ريك قائلاً: «أو أنّه من المســتحيل العثور عليه من خلال البحث بمفردك. على أيّ حال، كيف تنتهي الأغنية؟».

«الرجــل والمــرأة مقتنعان أنّهما، عاجلاً أم آجلاً، ســيجدان مكاناً يلتقيان فيه، وهناك سينتهي بحثهما الأبدي، في الغرفة التي لا وجود لها».

نظر جايسون إلى ريك. «ها نحن ذا مجدّداً».

«لكنّ الأغنية تنتهي من دون أن يجد العاشقان الغرفة».

قال جايسون ببرود: «هذا لأنّها أغنية حبّ. على أيّ حال، أنا

مقتنع أنّ الغرفة موجودة بالفعل، وأنّ شخصاً ما... أخفى بداخلها الخارطة التي نبحث عنها نحن وأوبليفيا».

قالت ماروك: «سيكون ذلك رائعاً، ولكنّني ما زلت أعتقد أنّك مخطئ».

ذهبت ماروك لرؤية مدرّس الموسيقى، وطلبت منه نسخة دقيقة عن كلمات الأغنية. أمّا جايسون وريك، فأمضيا الوقت بالتنزّه في أرجاء الحديقة.

لم تتركهما ابنة رئيس الكتبة المعظّم ينتظران طويلاً.

عندما عادت، ركعت على الأرض بجانبهما وفردت النصّ الطويل. «بحسب معلّم الموسيقى، هذه أقدم وأدقّ نسخة عن قصيدة العاشقَين».

وقعت أنظار الأولاد الثلاثة على المقطع الأخير، الذي كان نصّه كالآتي:

خلف ستارة منسوجة من خيوط ضوء سامٍ،
فُتحت غرفتنا بمفتاح عاديّ رنّان.
هناك سنلتقي في لحظة التزامُن
حبيب يطارد حبيباً إلى آخر الزمان.

سأل نيستور جوليا لثقته بأنّها أحدّ نظراً منه: «ماذا يفعل؟».

كانــا قــد ذهبا إلى الحمّام الصغير بالقرب من غرفة الضيوف في الطابق الثاني، والذي كانت نافذته هي الوحيدة التي تطلّ على كوخ العدّة.

أجابت جوليا: «لم يتمكّن من الدخول. أعتقد أنّه يستسلم. ها هو يترنّح، كما أنّه مبتلّ حتّى العظم».

هــزّ مانفريد قبضتــه باتّجاه نوافذ فيلّا آرغــو المقفلة وصاح غاضباً: «سأدخل قريباً! انتظروا وسترون!» ثمّ ركض بعيداً ولم يعد من الممكن رؤيته من النافذة.

بدّلت جوليا ونيستور موقعهما ليتمكّنا من متابعته من الأعلى.

قالت الفتاة بصوت منخفض: «لم أعد أراه في أيّ مكان ...».

في تلك اللحظة تماماً، سمعا ضربتين على باب المطبخ.

قال نيستور ممازحاً: «على الأقلّ يمكننا سماعه...». نظر إلى جوليا لبضع ثوانٍ طويلة، ثمّ ابتســم برضى وقال: «أنت فتاة ذكيّة، أتعرفين ذلك؟».

أجابته وهي تحدّق مجدّداً من خلال المطر: «نعم».

تحقّــق مانفريد مرّة أخرى من جميع أبواب الطابق الأرضي، ثمّ احتمى بسيّارته. في أثناء ذلك، رأت جوليا ونيستور من الطابق الثاني مصابيح السيّارة تضيء من الداخل.

تمتمت الفتاة: «ربّما قرّر الاستسلام والانصراف».

شغّل مانفريد المذياع، وتصاعدت موسيقى الروك العالية من السيّارة.

كرّرت جوليا بصوت مليء بالأمل: «ربّما قرّر الذهاب ...».

أومضت مصابيح السيّارة مجدّداً لثانية من الوقت، ثمّ انطفأت على الفور.

تمتم نيستور: «لقد ذهب إلى الجهة المقابلة، لكنّه يريدنا أن نعلم أنّه ما زال في السيّارة».

«لماذا؟ ماذا ينوي أن يفعل؟».

من الجانب الآخر من الحديقة، خلف السيّارة، يقع بيت الضيافة الذي يعيش فيه البستاني.

عندما التفتت جوليا، رأت أنّ نيستور اندفع بعيداً عن النافذة.

صاحت متسائلة: «نيستور، إلى أين أنت ذاهب؟!» غير أنّه لم يجبها.

تبعته جوليا وهو يهبط السلّم، ويعبر غرفة الهاتف، وغرفة الجلوس، والمطبخ، ثمّ يتوقّف بجوار الباب المؤدّي إلى الخارج.

توسّلت إليه: «لا تذهب! لا تتركني هنا!».

رفع نيستور إصبعه وأمرها قائلاً: «مهما حدث، ومهما رأيتِ من خلال النافذة... لا تخرجي! لا يمكنه الدخول إلى هنا، هل تفهمين؟ لكنّه يستطيع الدخول إلى هناك... ولا ينبغي أن أسمح له

بذلك. جوليا... أنت فتاة ذكيّة. أعلم أنّني أستطيع الاعتماد عليك. ريك وأخوك بحاجة إلى أن تبقي هنا في المنزل... وأن تمنعي ذلك الوغد من الوصول إلى الباب السحري».

«لا تتركني هنا وحدي!».

جال نظر نيستور في أرجاء المطبخ. كانت الأطباق المتّسخة التي تناول فيها الأولاد عشاءهم لا تزال مكدّسة في الحوض.

التفت البستاني بسرعة.

«أنت لست وحدك».

ثمّ فتح باب المطبخ على مصراعيه واختفى في العاصفة.

أغلقت جوليا الباب وأقفلته بسرعة، ثمّ ركضت إلى الطابق العلوي ووقفت عند النافذة.

قالت في دعاء قصير وهي تصعد السلّم الذي اصطفّت الصور فوقه: «أمّي، أبي! جايسون! ريك!».

كرّرت طوال الرواق المظلم: «أمّي، أبي! جايسون! ريك!».

توقّفت عند مدخل غرفة الجلوس.

كان ضوء المنارة يضيء الحديقة.

وكان ثمّة شخص هناك، يجري.

الفصل 18

- طويل اللسان وقلب الصخر -



أعاد جايسون قراءة المقطع الأخير من قصيدة العاشقَين متنهّداً، ثمّ قال: «حسناً يا ريك، هذا الأمر متروك لك».

حدّق إليه الصبيّ بذهول. «ولماذا؟».

«أنت الذكيّ بيننا. أنا الذي أتبع حدسي، وأجازف، وأعتمد على الحظّ. لكن عندما يحين وقت التفكير... فهذا من اختصاصك أنت». ثمّ التفت إلى ماروك مضيفاً: «لن يستغرق الأمر أكثر من دقيقة، سترين».

قال ريك بحدّة: «كفّ عن ذلك يا جايسون! على الأقلّ حاول المساعدة، ما رأيك؟».

سأل جايسون ماروك: «هل يعني لك هذا المقطع شيئاً؟ هل ثمّة أيّ إشارة إلى شيء سمعتِ عنه في بيت الحياة أو... لا أدري... في أسطورة أخرى من أساطير بونت؟ فكّري جيّداً...».

قرأت ماروك المقطع عدّة مرّات أخرى، ثمّ هزّت رأسها مستسلمة. «لم يتبادر شيء إلى ذهني الآن».

قال جايسون: «مع ذلك، لا شكّ أنّ هذا المقطع يشرح كيفيّة الوصول إلى تلك الغرفة».

تمتم ريك: «إن كان هذا صحيحاً حقّاً... يجب أن يحدّد المكان الذي تقع فيه الغرفة، وكيفيّة الوصول إليها بدءاً من مكان آخر».

«صحيح».

أشــارت ماروك: «ربّمــا يحدّد المقطع أيضــاً متى يمكنكما الوصول إلى هناك... كما ورد في الأغنية هنا، في لحظة التزامُن».

كرّر جايســون: «التزامُن يعني حدوث شيئين في الوقت نفسه أو تطابق شيئين معاً. ما هي الأشياء التي تتزامن أو تتطابق؟».

قال ريك: «مواعيد القطار».

«قطع الأحجية. الأصابع المتشابكة».

قالت ماروك: «الأسنان العلوية والأسنان السفلية... هممم... على الأقلّ في معظم الحالات!»، وضحكت.

قال جايسون: «شيء يتطابق...».

قاطعه ريك: «هذا خاطئ. لكي يحدث تطابق، أنت بحاجة إلى شــيئين على الأقلّ. شيئان يتطابقان عندما يكونان متزامنَين تماماً. بالتالي، لا يمكن لنقطة واحدة في الزمن، بمفردها، أن تتطابق...».

قال جايســون: «صحيح. ونحن لدينا حبيبان، وسوف يلتقيان في لحظة التزامُن، أي في الساعة التي يلتقي فيها شيئان».

قالت ماروك ببشاشة: «كدنا نصل إلى الحلّ!»، ثمّ أدركت أنّ أفكارهم لم تسعفهم كثيراً.

واصــل الأولاد الثلاثة قراءة المقطع تكراراً. تكبّد ريك أيضاً عناء قراءة القصيدة بأكملها، لكنّه لم يجد شيئاً مثيراً للاهتمام.

قــال جايســون بعد فترة من الوقــت: «الغرفة لا باب لها، بل

تشـــير القصيدة هنا إلى أنّها مغلقة بســـتارة منسوجة من الضوء... وفي حال وجود ســـتارة، فلن يكون ثمّة باب، كما هو الحال في دكّان الخرائط الضائعة. فعندما تمرّ من خلال الستارة، تصبح داخل الغرفة. بالتالي لا يوجد باب، وليس علينا ســـوى إيجاد الغرفة... في الوقت المناسب».

«هل يمكن أن تكون الســـتارة عبارة عن شـــعاع من أشـــعّة الشـــمس؟ ربّما كانـــت الغرفة مظلمة، ولا يأتيهـــا الضوء إلّا من المدخل».

«أو ربّما العكس تماماً. تقول الأغنية ضوء سامٍ، ويمكن لهذه الكلمة أن تعني كاملاً أو مُطلقاً».

«كما تعني مَهيباً».

«أجل، كما في المعابد».

«يمكن أيضاً للشيء السامي أن يكون رفيع المكانة أو مرتفعاً، مثل الضوء الآتي عبر السقف، ربّما».

جلسوا هناك بصمت، تائهين في أفكارهم.

أخيـــراً ســـألت ماروك: «لكن إذا كانـــت الغرفة بلا باب، فما الحاجة إلى المفتاح؟».

«ما من باب، لكنْ ثمّة مفتاح... وهو رنّان...».

«مفتاح مشرق وملوّن؟».

«أو مفتاح يهتزّ».

قال جايســـون مخمّناً: «هل من الممكن أن تتحدّث القصيدة عن مفاتيح بيانو!».

«لسوء الحظّ، لم يتمّ اختراع البيانو أو حتّى القيثارة إلّا بعد عدّة قرون... كلّا، المفتاح الرنّان قد يكون نوعاً من المفاتيح الرئيسة».

قال جايســـون لصديقه مبتســـماً: «من المضحك أنّنا في بحث دائم عن المفاتيح والأبواب...».

بعد عدّة محاولات، وقفت ماروك وتمطّت. «يا شـــباب، لقد تعبت من التفكير! أقترح أن نأخذ اســـتراحة. كما أنّ الشمس على وشك الغروب، وسيبرد الطقس قريباً».

قال جايسون: «ماذا قلتِ؟».

أجاب ريك عنها: «ســـيبرد الطقس قريباً. ففي الصحراء، ثمّة فروقات كبيرة في الحرارة بين الليل والنهار».

قال جايسون: «هذا هو معنى لحظة التزامُن! لقد وجدتُها! لماذا لم نفكّر في ذلك من قبل؟».

تبادل ريك وماروك نظرة ارتباك. «هلّا شرحتَ لنا من فضلك؟».

«الأمر بديهي جدّاً! نحن ننظر طوال الوقت إلى أغنية العاشقَين على أنّهما رجل وامرأة. لكن حاولا النظر إليها خارج هذا السياق. لا تفكّرا بهما كعاشـــقَين من لحم ودم... بل كشـــيئين مختلفَين، كالشمس والقمر مثلاً، أو كالشمس والأرض».

أذهلت تلك الفكرة ريك.

«العاشـقان الأبديان، اللذان لا يجتمعـان أبداً. حبيب يطارد حبيباً، إلى الأبد!».

قالت ماروك وهي تفكّر مليّاً: «لا يمكنهما أن يكونا الشـمس والقمر، لأنّهما سيكونان الإله آمون-رع والإله تحوت. ولا يمكنهما أن يكونا الشمس والأرض أيضاً، لأنّ الأرض هي الإله جب...».

«لدينا إذاً حبيبان يمكنهما أن يكونا ما قلتِه للتوّ: جب، الأرض، ونوت، السماء».

تسـاءل جايسـون بصوت عالٍ: «إذا كان الأمر كذلك، فمتى يتزامنان؟ أي متى يحين الوقت الذي يمكننا فيه العثور على الغرفة التي لا وجود لها؟».

هتفت ماروك: «شروق الشمس!».

أشار ريك: «أو غروبها. فالمقطع لا يشير إلى أيّ منها، لكنّ الرجل المسـنّ في دكّان الخرائط الضائعة هو الذي قال لنا. هل تذكر قصّته يا جايسون؟ قال إنّه أمضى الليلة في بيت الحياة، وحرّك المرايا...».

تمتم جايسون: «عند الفجر ...».

«اعتقدَ أنّه سيجد ستارة الضوء عند الفجر، لكنّه كان مخطئاً. إذ أدّى ضوء الشمس إلى احتراق أوراق البردي، الأمر الذي أشعل حريقـاً فـي مبنى المجموعة. هذا يعني أنّ لحظة التزامن ليسـت الشروق، بل الغروب. أي... قريباً جداً!».

سألته ماروك: «قريباً جداً...لكن أين؟».

كان ثمّــة مكان واحد يمكنهم البحث فيه عن «الغرفة التي لا وجود لها»: المكان نفســه الذي بحث فيه صاحب دكّان الخرائط الضائعة من دون أن يصل إلى نتيجة... الأروقة المهجورة!

التفت جايسون وريك بحماسة إلى ماروك. كانت الوحيدة التي تستطيع اصطحابهما إلى هناك.

الفصل 19
- الأروقة المهجورة -



فُتــح باب الأروقة المهجورة علــى غرفة كبيرة خالية، وتردّد صدى صرير عبر الهواء المظلم العابق برائحة الرطوبة.

قالت ماروك وهي تتوقّف عند العتبة: «لم تطأ قدم إنسان هذا المكان منذ سنوات، تقريباً منذ اندلاع الحريق...».

أحاط بهم صمت مخيف. تقدّم الأولاد بضع خطوات بتردّد. إذ كان باستطاعتهم الإحساس بوجود غريب حولهم، مليء بالألم، والرماد، والشــؤم، وبأشــياء ميتة ومنســيّة منذ زمن طويل. كانت الجدران والنوافذ مغطّاة بخطوط ســوداء تشبه المخالب الضخمة. أمّــا التماثيل التي زيّنــت الغرفة في ما مضى، فتحوّلت إلى ظلال مخيفــة ومتمايلــة، ووجوهها التي تصوّر وجــوه حيوانات فخورة ونبيلة، أصبحت الآن حزينة وبائســة. وحتّــى النافذة الكبيرة التي تطلّ على الفناء الداخلي لبيت الحياة لم تعد، على ما يبدو، تُوفّر أيّ عزاء لهذا المكان. بدا كما لو أنّ الهواء بقي جامداً وعاجزاً عن إيجاد طريقه إلى الخارج.

فتح ريك قاموس اللغات المنسيّة، بينما أضاء جايسون مصباح زيــت وألقــى نظرة على أقرب الأروقــة. كان الصفّ الطويل من الكوّات السوداء الموزّعة على جانبيه مخيفاً.

أجبر نفســه على عدم التفكير في الكتب الهزلية العديدة التي تخرج فيها أيادي هياكل عظمية فجأة من الظلال في أماكن مظلمة

كهذه، وقال: «يبدو المكان أشبه بمقبرة تحت الأرض أو بسراديب الموتى...».

كانت ماروك لا تزال واقفة على العتبة، غير واثقة ما إذا كان ينبغي لها الدخول أم لا.

كانت قد تربّت على اعتبار الأروقة المهجورة منطقة محظورة لا تحتوي سوى على الرماد والظلام والدمار.

سألها جايسون عندما أدرك مدى توتّرها: «هل أنت آتية أم لا؟».

أجابت: «لا أدري ما إذا كنت أستطيع دخول هذا المكان. فقد خرقتُ عمليّاً اليوم كلّ القواعد التي وضعها بيت الحياة وربّاني عليها أبي».

قال مشجّعاً، وهو يمدّ يده ليمسك بيدها: «إذاً، لن يضرّك خرق قاعدة أخرى...».

أغمضت ماروك عينيها واجتازت العتبة. عندما فتحتهما مجدّداً، كان جايسون لا يزال أمامها، وذراعه ممدودة نحوها. أضاءت وجهه شعلة مصباح الزيت، وإلى يسارها، رأت ظلّ ريك في ضوء الشمس الباهت، الذي كان يحوّل السماء إلى شريط برتقالي ملتهب. كانت الأرض صلبة وباردة.

قالت: «الشمس على وشك الغروب. أين سنذهب الآن؟».

أجابها جايسون: «لا أدري، لكنّنا سنكتشف قريباً. أليس كذلك يا ريك؟».

ضغط بلطف على يد ماروك، وملأها بموجة من الطاقة الإيجابيّة المختلفة إلى حدّ كبير عن مشهد البؤس الخانق للأروقة المهجورة.

ذهب إلى أحد التماثيل الحارسة، ومسح عنه غبار العنكبوت والسخام، ليكتشف أنّه يصوّر بطاقة أركانا الكبرى رقم 1: الساحر.

سأل جايسون مشجّعاً: «هل لديك أيّ فكرة عن معنى ذلك؟».

أجاب صديقه بعمليّته المعتادة: «ربّما. إذا كان تخميننا بشأن لحظة التزامن صحيحاً، فثمّة على الأقلّ ثلاث غرف يمكننا أن نبدأ البحث فيها. غرفة القمر، بطاقة أركانا الكبرى رقم 18. وغرفة النجم، بطاقة أركانا الكبرى رقم 17. وغرفة الشمس، بطاقة أركانا الكبرى رقم 19». تمتم جايسون: «حبيب يطارد حبيباً إلى الأبد...».

قال ريك: «لكن إذا أردنا المجازفة وسلوك الاتّجاه المعاكس، ثمّة غرفة بطاقة أركانا الكبرى رقم 6... غرفة العشّاق».

عندما شعرت ماروك أنّ جايسون يضغط بلطف على يدها، فهمت أنّ غرفة العشّاق ستكون وجهتهم.

مشى الثلاثة جنباً إلى جنب، بينما عكست شمس المغيب ظلالهم الطويلة على الأرض.

حدّق جايسون أمامه مباشرة، حاملاً مصباح الزيت. ولم توفّر المرايا المكسوّة بالسخام كثيراً من الضوء للأروقة، فبدت الكوّات أشبه بسلسلة من الأفواه المفتوحة المظلمة.

حدّقت ماروك إلى الأرض الداكنة، وثبّتت نظرها على أطراف صندلها، بينما تردّد صدى خطواتهم في أرجاء الممرّ.

عند كلّ تقاطع، كان ريك يتحقّق من ترتيب بطاقات الأركانا الكبرى في القاموس حتّى يتمكّن من تحديد الاتّجاه الذي ينبغي لهم سلوكه.

شقّوا طريقهم عبر المتاهة المليئة بهواء ساكن تماماً من دون أن ينطقوا بكلمة واحدة، بل كان كلّ منهم غارقاً في أفكاره المقلقة.

سرعان ما ابتلع الظلام الدامس ظلالهم، وأخفى السقف والجدران. مع كلّ خطوة، كانت ذرّات الرماد أو غبار البردي تتطاير عن الأرض، وتسحق أقدامهم شظايا الخشب المتفحّم، ثمّ ما لبثت الدموع أن بدأت تسيل من أعينهم المتهيّجة.

قال ريك وهو يتذكّر نصيحة والده: «لا تلمسا شيئاً ولا تفركا أعينكما»، ثمّ حاول أن يتحلّى بشيء من التفاؤل وأضاف: «لا بدّ أنّنا اقتربنا كثيراً الآن».

تدلّت من السقف شباك كثيفة من خيوط العناكب المليئة بالرماد. فجأة، ظهر عائق في طريقهم.

رفع جايسون مصباح الزيت، وسرعان ما صرخت ماروك مذعورة وتمسّكت بيده بقوّة.

أمامهم، كان ثمّة هيكلان عظميان متعانقان.

أدرك جايسون أنّه لم يكن خائفاً جدّاً. ففي النهاية، كان يفكّر في الهياكل العظمية منذ أن خطا داخل الأروقة المهجورة.

أفلت بلطف يد ماروك، وقرّب مصباح زيت الخروع من الهيكلَين العظميين.

كانت بعض ملابسهما لا تزال سليمة. كان الهيكل العظمي الأكبر لرجل جالس وظهره مُسنَد إلى الجدار. وكان يحتضن بين ذراعيه هيكلاً عظمياً أصغر حجماً لامرأة، كما لو أنّه يحميها. ومع أنّ المشهد كان مخيفاً، إلّا أنّ هالة من الحنان أحاطت به. تخيّلهما جايسون وهما لا يزالان على قيد الحياة، محاطَين بالدخان واللهب، وقد توقّفا هنا لانتظار النهاية، وكل منهما يحتضن الآخر.

تمتمت ماروك من خلفهما: «روحان بائستان لأنّ أحداً لم يعدّهما للرحلة إلى العالم الآخر. إنّهما لا يحملان حتّى خنفساء على قلبيهما، والتي كان ينبغي أن ترافق كلّاً منهما أمام تحوت وميزان ماعت الأكبر لكي يتمّ وزن أعمالهما».

حدّق إليها جايسون من دون أن يفقه شيئاً.

ركعت ماروك وأخرجت من ثوبها تميمة كانت ترتديها حول عنقها. ثمّ بدأت بالصلاة وهي تمسح على الأحجار وقِطَع المعدن في قلادتها وتمسك بها مثل مسبحة.

انتظر جايسون وريك بصمت حتّى أنهت ماروك صلاتها. ثمّ أخرج كلّ من جيبه الخنفســاء التي حصل عليها عندما دخل بيت الحياة، ووضعاهما بلطف على الهيكلين العظميين.

همس ريك وهو يمرّ بجانبهما: «فلترقدا بسلام ...».

مشوا طويلاً، إلى أن أدّى بهم الرواق إلى غرفة كبيرة مربّعة. فــي الداخل، كان ثمّة تمثالان كبيران، يبلغ طولهما ثلاثة أضعاف طولهم، وكان رأساهما مكسوَّين بألواح محترقة متدلّية من السقف.

قال ريك بصوت خافت: «ها هي...»، وراح يبحث عن إشارة إلى بطاقة أركانا الكبرى المخصّصة للعشّاق.

صدرت عن ماروك صرخة ارتياح، إذ كانت الغرفة تضمّ نافذة كبيرة تطلّ على باحة بيت الحياة.

ركضــت الفتاة لتنظر إلى الســماء البرتقاليــة والحمراء وإلى قرص الشمس، الذي أصبح فوق الأفق تماماً. استقرّت يدها على حافة النافذة وتنفّست الهواء النقيّ الآتي من الخارج.

قالت وهي تلتفت لتنظر إلى صديقيها: «أشعر أنّني عدت للتوّ إلى الحياة...».

لكن عندما التفتت، لاحظت أنّ الســواد كان يكسو ملابسهما ووجهيهما، تماماً كمن خاض عاصفة من الرماد.

أينمـــا التفتوا، رأوا الحطام وشـــباك العنكبـــوت المتدلّية من تمثالَين عملاقَين وهي ترفرف مثل قماش حريري.

ســـأل جايسون وقطع البردي المتفحّمة تخشخش تحت قدميه مع كلّ خطوة: «هل من الممكن أن يكون الحريق قد اندلع من هنا؟».

أجاب ريك: «أنا لا أدري حقّاً كيف تنتشر الحرائق، لكن من الواضح أنّ هذه الغرفة نالت الحصّة الأسوأ».

«لكنّنا بحاجة إلى معرفة المكان الذي أشعل فيه الرجل المسنّ النار».

هزّ ريك كتفيه متسائلاً: «وكيف لنا أن نعرف ذلك؟».

نظروا إلى قرص الشـــمس الذي بـــدأ ينخفض ببطء ليلامس الأفق.

«على أيّ حال، أشكّ أنّنا سنحصل على فرصة ثانية».

عبس ريك قائلاً: «ماذا تعني؟ فرصة ثانية لـ... لفعل ماذا؟».

«لمحاولة تنفيذ ما نفكّر فيه».

حاول ريك أن يتذكّر قصّة الرجل المسنّ. «قال إنّه قام بتحريك بعض المرايا... وأنّ أشعّة الشمس أشعلت أوراق البردي. إذا كانت هذه هي الغرفة، فلا شكّ أنّ المرايا موجودة هنا في مكان ما».

توجّه ريك نحو النافذة ونظر إلى الخارج.

لـــم يتعـــرّف إلى هذا الجزء من الحديقـــة، ولكنّه تأمّل الأفق بعنايـــة. «إذا كانـــت المرايا قد التقطت ضوء الشـــمس، فيجب أن

تكون مواجهة لهذه النافذة... الشمس تغيب من جهة الغرب، أي من هناك... وبالتالي فهي تشرق من الجهة المقابلة، أي من هناك. هذا يعني أنّه إذا كانت المرايا هنا، فلا شكّ أنّها بالقرب من هذين التمثالين...».

قالت ماروك بصوت خافت: «إيزيس وأوزيريس».

«ماذا؟».

«هذان التمثالان يصوّران إيزيس وأوزيريس، العاشـقَين. فبعد أن تعرّض أوزيريس للخداع وقُتل على يد سِت، الذي قطّعه إرباً، شرعت إيزيس بتفتيش النيل بحثاً عن أجزاء جسده. وعندما عثرت عليها جميعاً، أعادت وصل تلك الأجزاء بعضها ببعض، واحداً تلو الآخـر، إلى أن كوّنت أوّل مومياء على الإطلاق. ثمّ اسـتخدمت فنونها السحرية لإعادة أوزيريس إلى الحياة». مسحت ماروك بظاهر يدها دمعة سـالت على خدها، ثمّ ظهرت ابتسـامة ناضجة مشوبة بالمرارة على وجهها. «كم هذا غريب. قد يكون هذا هو سرّ الحياة الذي بحث عنه العاشقان الأبديان في القصيدة: سحر الحبّ، وهو أقوى من الموت نفسه...».

أجاب ريك متأثّراً: «أعتقد... أعتقد أنّك على حقّ...».

ذهب جايسون إلى التمثالين، وحاول جاهداً أن يميّز وجهيهما المخبّأين تحت طبقة سميكة من الرماد. رفع المصباح فوق رأسه،

وقدّر أن يكون التمثال الواقع إلى اليمين يعود لإيزيس. في الأعلى، بالـكاد اسـتطاع أن يرى وجه المـرأة ذات الملامح النبيلة المخبّأ جزئيّاً في الظلام. كانت يد المرأة مكسورة، بينما شرد نظرها بعيداً باتّجاه النافذة.

أمّا أوزيريس، فوقف بجانبها يحدّق إليها.

وضع جايسـون المصباح على الأرض، ومسح بيديه طبقات الرمـاد المتراكمـة على قدمي ورجلَي التمثال. فاكتشـف أنّه كان ملفوفاً بضمادات حجرية، نمت من تحتها نباتات صغيرة.

قال في نفسه، «حياة تولد من الموت».

انحنى لالتقاط المصباح، وفجأة رآها: كان ثمّة شيء على رأس أوزيريس يلمع، ويلتقط ضوء الشمس.

هتف قائلاً: «ريك! المرآة! المرآة! لقد وجدتها! إنّها على رأس أوزيريس!». خلفهم، بدأت الشمس تغوص خلف الكثبان الرملية.

هتف ريك: «كنت أعرف أنّنا سنحتاج إليه!»، وأخرج أخيراً من رزمته الحبل الذي أحضره معه من فيلّا آرغو.

صنع الصبيّ حلقة ببضع حركات ماهرة من يديه، ثمّ ألقى بها حول رأس أوزيريس.

تمتم جايسـون قبل أن يتمسّـك بالحبل اسـتعداداً للتسلّق: «فلنأمل أن يسـامحنا أوزيريس على قلّة الاحترام هذه... ماروك، هلّا تلوتِ إحدى صلواتك؟».

أجابت الفتاة: «وأنت، كن حذراً!».

«هل تمزحين؟ إنّه لعب أطفاااال...». وانهار الجزء الحجري البارز الذي وضع جايسون قدمه عليه.

سقط الفتى على الأرض، لكنّه سرعان ما نهض مجدّداً، من دون أن ينفض الرماد عن نفسه. بدأ يتسلّق من جديد وقد احمرّ خجلاً.

أمسك الحبل بإحكام، وسحب نفسه يداً تلو الأخرى، ثمّ بدأ صعوده. وفي غمضة عين، وصل إلى يدَي أوزيريس المتشابكتين وصعد فوقهما. وجد نفسه وجهاً لوجه أمام التمثال الصخري المنحوت. فأفلت الحبل، ثمّ مزّق شريطاً من قميصه الكتّاني، وبدأ يمسح السخام الذي يغطّي التمثال.

نادته ماروك من الأسفل: «جايسون، الشمس على وشك الغروب!».

فرك جايسون التمثال بكلّ ما تبقّى لديه من طاقة، فتصاعدت سحابة رماد كثيفة، جعلت من الصعب عليه الرؤية.

خشي لبضع لحظات طويلة أن يكون مخطئاً. لكن في النهاية، لم تضع جهوده سدىً. أخيراً، رأى بصيصاً آخر من الضوء.

لقد كان محقّاً. فتحت تلك الطبقة من السخام الأسود، ظهر بالفعل سطح مرآة!

صاح جايسون عندما لمعت المرآة أمام عينيه: «لا بدّ أنّ ثمّة مرآة أخرى على تمثال إيزيس!».

نزع الحبل من حول عنق أوزيريس وألقاه على الأرض.

لم يُضيِّعْ ريك ثانية واحدة، بل أسرع بالصعود إلى حضن إيزيس. وكما فعل جايسون، استعمل جزءاً من قميصه لإزالة السخام الذي خلّفه الحريق، ولمّعه جيّداً، ليكتشف أنّ صديقه كان على حقّ. فعلى التاج الأحمر الذي يحيط بجبين إيزيس كان ثمّة مرآة أخرى.

هتف بسعادة عارمة: «لقد نجحنا! لقد نجحنا!».

في تلك اللحظة بالذات، تراقص آخر شعاع من أشعّة الشمس عبر السماء، وشعّ من فوق مسافة شاسعة على جبين أوزيريس مباشرة.

للحظة، وجد جايسون نفسه محاطاً بعمود من الضوء المغبرّ.

تحرّك جانباً، وتراجع نحو كتف التمثال.

غير أنّ شيئاً لم يحدث.

كانت ماروك، الواقفة على الأرض في الأسفل، هي التي أدركت خطأهما.

«إنّهما لا ينظران إلى بعضهما البعض! العاشقان لا ينظران إلى بعضهما البعض! المرآتان لا تعكسان شيئاً!».

كانت على حقّ. فأشعّة الشمس انعكست عن أوزيريس لتصل

إلى كتف إيزيس، على مســافة قصيرة من المرآة التي تزيّن تاجها. وهناك انطفأ الشعاع.

صــاح ريك محــاولاً تحريك المرآة: «مرآة إيزيس لا تتحرّك! إنّها مثبّتة في مكانها».

صاح جايســون: «لا يفترض بالمــرآة أن تتحرّك، وبالتالي... علينا تحريك التمثال بأكمله!».

مال بجرأة في الفضاء الخالي وترك نفســه يتدلّى من ذراعي أوزيريس، ثمّ قفز على الأرض وسارع إلى تمثال الآخر.

صاح محدّثاً إيزيس وهو يلقي بكلّ ثقله على قاعدة عرشــها: «عليك أن تتحرّكي! انظري... إلى عينَي... حبيبك!».

لكنّ أشعة الشمس بقيت مسلّطة على مرآة أوزيريس فقط.

صــاح ريــك، وهو يضع يديه في الضوء الــذي يعبر الغرفة: «بسرعة!».

ركضت ماروك إلى جانب جايسون وساعدته في الدفع.

وبأعجوبة... وببطء شديد... بدأ التمثال يتحرّك.

تحرّكت إيزيس على مسارات قديمة، ودفع وزنها الرماد جانباً في طريقها. دارت حول نفسها، بأناقة ومهابة، إلى أن واجهت أخيراً حبيبها.

عندما تلاقت نظراتهما، تراقصت أشعّة الشمس بين تاجيهما، وانعكست عن المرآتين في وداع أخير قبل حلول الظلام.

كان ريك، الجالس بين ذراعي إيزيس، هو الذي رأى ستارة الضوء المؤدّية إلى الغرفة التي لا وجود لها.

عبر نيستور الحديقة وهو يعرج مسرعاً تحت الأمطار الغزيرة. انبعثت من سيّارة مانفريد المركونة في وسط الفناء موسيقى تصمّ الآذان، مصحوبة بالطبول والغيتار الكهربائي.

كان باب بيت الضيافة مفتوحاً على مصراعيه، وانبعث منه ضوء أصفر دافئ تخلّل الأشجار.

كان نيستور قد تركه مقفلاً من دون انتباه... فانحنى، متجاهلاً ألم ظهره، ومشى حول الحديقة بأكملها.

تمتم محاولاً إيجاد طريقه في الظلام والمطر: «أين أنتِ؟ أين أنتِ؟».

أضاءت المنارة الحديقة، فوجد نيستور عربته أخيراً. كانت خلف شجرة كرز يابانية، تماماً حيث تركها عندما أنهى عمله.

تناول المجرفة الملقاة في العربة وحاول إخراجها، ملوّحاً بها في الهواء عدّة مرّات. صحيح أنّها ليست سلاحاً فعليّاً، غير أنّها تفي بالغرض.

على أيّ حال، ليس لديه حلّ آخر.

عندمـــا دخل المنزل على حين غرّة، فاجأ مانفريد، الذي كان يتجوّل حول المكتب.

صاح نيستور مهدّداً وهو يقف بجانب الباب، ملوّحاً بالمجرفة: «اخرج من هنا حالاً، وإلاّ أخرجتك بالقوّة!».

أجفــل مانفريـــد، فدسّ شـــيئاً في جيبه ثمّ اســـتدار لمواجهة البستاني.

«إذاً، قرّرتَ الخروج أخيراً... ألم يعلّمك أحد آداب الضيافة؟».

«أعِد ما أخذته».

«وماذا أخذتُ برأيك؟».

لوّح نيستور بالمجرفة مهدّداً: «أعِد ما أخذته إلى مكانه».

رفـــع مانفريد يديه قائلاً: «مهـــلاً، مهلاً، لا تخرج عن طورك أيّها الرجل...».

كانت مياه المطر تقطر من معطف مانفريد على مكتب البستاني وأوراقه.

شعر نيستور بوخز في يديه، فأحكم قبضته على المجرفة.

أشار مانفريد إلى أنفه الذي كانت تعلوه نظّارة شمسية محطّمة.

«انظر ماذا فعلت صديقتك الصغيرة بي؟ لقد كسرَت أنفي».

«لقد عاملتك برفق... والآن أخرج من هنا، وأعِد ما أخذته».

ظهر مفتاح بين يدَي مانفريد. كان قديماً وصدئاً، وبدا شـــبيهاً بالمفاتيح الأربعة للباب الســـحري. سأله سائق أوبليفيا نيوتن وهو

يهزّ رأسه بسخرية: «هل تقصد هذا؟ لا أعتقد أنّني أريد إعطاءك إيّاه... لقد وجدتُه للتوّ، ولديّ إحساس أنّه سيعجب سيّدتي كثيراً... حذارِ! انتبه لهذه المجرفة!».

تجنّب مانفريد حركة تهديد من نيستور.

«اخرج!».

بدأ كلٌّ منهما يدور حول الآخر، محافظين على مسافة معيّنة، مثل حيوانَين مفترسين. من جهة، كان نيستور يحمل المجرفة، ومن الجهة الأخرى، كان مانفريد وبيده بالمفتاح.

قال مانفريد: «لقد سبّبت لي صديقتك الصغيرة الأذى. وكلّ ما أردتُه هو زيارتك قليلاً، لتناول فنجان من الشاي معك...».

حذّره نيستور وهو يلوّح بالمجرفة: «هاتِ المفتاح».

«وإلّا؟».

«هاته».

وجد مانفريد نفسه واقفاً والباب خلفه، فبدأ يتراجع ببطء. «حسناً، حسناً. سأعطيك إيّاه. ففي النهاية، بتّ أعرف مكانه الآن. يمكنني العودة في أيّ وقت لأخذه في غضون بضعة أيّام».

مشى إلى الخلف على الشرفة الخشبية التي تحيط ببيت الضيافة، ثمّ هبط الدرجتين المؤدّيتين إلى الحديقة. «ربّما أعود عندما يكون جميع الأولاد هنا، ما رأيك؟».

«ضـــع ذاك المفتــاح علــى الأرض، ثمّ اصعد إلى ســيّارتك وانصرف من هنا».

خفض مانفريد يده التي يحمل بها المفتاح ببطء، متظاهراً أنّه يطيع أمر نيستور.

«أين هم الأطفال، على أيّ حال؟ هل تحبسهم في المنزل؟ أم أنّك أرسلتَهم إلى مكان ما... لتعقّب يوليسيس مور؟».

ثــار غضب نيســتور، فضــرب المجرفة على أرض الشــرفة الخشبية. عندئذٍ، انقضّ مانفريد كالنمر وأمسك بها بيده الحرّة، ثمّ دفعها نحو نيستور.

فقدَ البستاني توازنه وسقط على الأرض، فوق العشب.

استلقى هناك، وهو يشعر أنّ كلّ عظام جسده تحطّمت.

خلفه، دسّ مانفريد المفتاح في جيب معطفه مجدّداً. «يا للعار أيّها الرجل المسنّ. لكنّها كانت محاولة جيّدة...».

حاول نيســتور الوقوف على قدميه، وكان المطر البارد ينهمر بغزارة على عنقه.

تمكّن بطريقة ما من النهوض على ركبتيه مترنّحاً... ورأى من زاوية عينه المجرفة وهي تلوح في الهواء مستهدفة رأسه.

مال جانباً متفادياً الضربة بالكاد.

قال مانفريد ضاحكاً: «ردود فعلك سريعة بالنسبة إلى سنّك!».

في تلك اللحظة، أصابته ركلة نيستور في بطنه.

بصق مانفريد، وقد فوجئ تماماً، وانحنى إلى الأسفل. فسقطت نظّارته على الأرض، وراح يتحسّس بيده العشب بحثاً عنها.

«ما كان يجدر بك فعل ذلك أيّها الوغد! لقد أغضبتني حقّاً...».

نهض واقفاً، ورفع المجرفة ثانية.

في تلك اللحظة تماماً، توقّفت الموسيقى المتصاعدة من مذياع السيّارة.

الفصل 20
- المفتاح الرنّان -



بينما كانت الشـــمس تنخفض ببـــطء وراء الأفق، اندفع ثلاثة أولاد مكســـوّين بالسخام من بيت الحياة، وهرعوا إلى بركة مربّعة من الماء الســـاكن. في وســـطها، ارتفع تمثال حتحور، إلهة الحبّ والموسيقى، وكان عبارة عن نصف امرأة ونصف بقرة.

لم يلتقطوا أنفاسهم إلّا عندما وصلوا إلى البركة.

سأل جايسون ريك: «هل أنت واثق أنّ هذا هو المكان المناسب؟».

«بكلّ تأكيد. فقد ألقي شعاع الشمس هنا... بالضبط!».

ركع ريك على ركبتيه، واستعمل يديه لإبعاد العشب الذي نما حول الحافّة الصخرية للبركة.

هتف وهو يدخل يديه في التراب الناعم: «ها هو! لقد وجدناه!».

ركعت ماروك وجايسون بجانبه للمساعدة. اقتلعوا العشب مع كتل كبيرة من التراب. وتحت كلّ ذلك، عثروا على شبكة حجرية منحوتة على شكل جرس تمتدّ عبرها ثمانية عوارض من الأحجار المخروطية. بدت أشبه بغطاء لتصريف المياه.

صاح ريك: «هذه هي ســـتارة الضوء!». تناول صخرة صغيرة وأسقطها في المساحة الفارغة بين عارضتَين حجريتين.

ارتطم الحجر بشيء معدني، ثمّ ارتدّ على سطح صلب، وقفز ثلاث مرّات.

قال جايســـون وهو ينحني ليحاول إضاءة شـــيء من الظلام: «يبدو أنّ ثمّة سلّماً هناك...».

وقفت ماروك ونظرت حولها. كانوا في واحة صغيرة لم يأتِ إليها سوى قلّة من الناس، ربّما لأنّها كانت قريبة جدّاً من الأروقة المهجورة.

تمتم ريك: «لقد كان بالفعل أمام أعين الجميع... من يدري كم من الأشخاص أتوا إلى هنا للدردشة من دون أن يلاحظوا وجود هذه الفتحة، أو ربّما اعتبروها مجرّد مصرف مياه عادي».

تحت الغطاء مباشرة ظهر ممرّ ضيّق للغاية، يكفي بالكاد لمرور شخص.

أمسك جايسون بإحدى العوارض الحجرية وحاول شدّها، فصدر رنين عن الغطاء، لكنّه لم يتزحزح.

قال لاهثاً وهو يحاول ثانية وثالثة: «لا بدّ أنّه عالق... فمن يدري كم مضى من الوقت... منذ أن حاول... آه... أحدهم فتحه!».

بعد المحاولة الرابعة، استسلم واستلقى على العشب الناعم.

قال ريك: «لا، أعتقد أنّه مقفل».

سألت ماروك: «هل سمعتما ذاك الصوت؟».

«تذكر القصيدة مفتاحاً رنّاناً...».

في محاولة لمعرفة مصدر ذلك الرنين الغريب، لاحظ ريك أنّ أقراصاً نحاسية غريبة كانت تتدلّى في الهواء معلّقة بالجزء السفلي

من العوارض الحجرية الثمانية. فمرّر أصابعه بين العوارض، ونقر عليها ليتصاعد منها الصوت نفسه الذي سمعوه من قبل.

قال: «لا يوجد قفل، لا شيء عدا هذه... الصنوج الغريبة».

لم يكن ينوي الاستسلام، لذلك وضع المصباح على الغطاء وتمدّد على بطنه لإلقاء نظرة عن كثب. كانت الصنوج معلّقة بالعوارض بحلقات برونزية يمكن نقلها من اليسار إلى اليمين لتغيير موضعها. وعندما يتغيّر موضعها، تتغيّر نغمتها.

تساءل جايسون بصوت عالٍ وهو يحكّ رأسه بيده المكسوّة بالتراب: «لكن ما معنى هذا؟».

همّت ماروك بقول شيء، ثمّ عضّت على شفتها وهزّت رأسها.

ألقى ريك نظرة فاحصة على الصنوج. كان بالإمكان تحريكها جميعاً، على الرغم من أنّها بدت مترابطة بطريقة ما. أحصى عددها، فوجدها ستّة عشر صنجاً، عُلّق اثنان بكلّ عارضة أفقية.

قال أخيراً: «لم أفهم شيئاً من كلّ هذا... لا أدري ماذا يفترض بنا أن نفعل».

استجمعت ماروك شجاعتها وسألت: «هل يمكن أن تكون هذه خشخيشة كبيرة؟». كانت هذه هي المرّة الأولى التي ترى فيها صديقَيها عاجزَين أمام أحجية... أحجية بدت بالنسبة إليها بسيطة للغاية.

سألها جايسون: «ماذا قلت؟».

كرّرت الفتاة: «خشخيشـــة، إنّها آلة موسيقية». ثمّ أشارت إلى تمثال حتحور، إلهة الموســيقى، التي كانت تحمل واحدة بيديها. أمــام صمــت صديقيها، أوضحت أكثر: «إنّها أداة قرع يمكن تغيير وضعيّتها بطرق مختلفة، اعتماداً على الأغنية التي تريدان غناءها».

سألها جايسون: «وهل تعرفين كيف يتمّ... وضعها؟».

«أنا متأخّرة قليلاً في دروس الموسيقى، لكنّ هذا ليس بالأمر الصعب».

اقتربت ماروك من الغطاء وتحقّقت من موضع الصنوج. «إذا كنّا بحاجة إلى مفتاح رنّان عادي، على أيّ أغنية نضبط الآلة؟».

أجاب الولدان الآتيان من خليج كيلمور بصوت واحد: «أغنية العاشقَين!».

ركعت ماروك عند أعلى الفتحة وبدأت بتغيير وضعية الصنوج علــى طول العوارض الحجرية، إلى أن رضيت عن النغمات التي تصدرها.

قالت وهي تنهض: «ها هي! لقد انتهيت!».

سألها جايسون: «كيف انتهيتِ؟ لم يحدث شيء».

«ربّما لا يفترض أن يحدث شيء على وجه الخصوص». ركع وأمســك بالغطاء ثمّ بدأ يشدّه نحوه. مجدّداً، سُمع صوت الرنين، لكنّ الغطاء لم يتحرّك.

لكــن فــي اللحظة التي كان فيها ريك على وشــك أن يُفلت الغطاء، تحرّك قليلاً، ثمّ بدأ ينفتح ببطء.

كاد الفتى صاحب الشعر الأحمر أن يفقد توازنه، لكنّ جايسون أمسك به وساعده على وضع الغطاء على العشب بجانب الفتحة.

قلــب الأولاد الغطاء رأســاً على عقــب، وفهموا أخيراً كيف يعمــل ذلك الجهــاز المبتكر. كانت الصنــوج مترابطة بنظام من الأوزان والحبال. ومن خلال تعديل موضعها، يحرّر نظام الحبال حبلاً متيناً قويّاً، يبقي الغطاء محكماً في أيّ وضعيّة أخرى، ويقفل به الفتحة.

أشار ريك مفتوناً بكلّ تلك الحبال الصغيرة: «هذا بالفعل قفل ذكيّ...».

تناول جايسون مصباح الزيت وحمله فوق الفتحة المؤدّية إلى الممرّ. كان قلبه ينبض بعنف، تماماً كالدفّ.

هتــف قائــلاً: «هذا ســيُثبت الحقيقة لكلّ من لــم يصدّقها! فلننطلــق!». ووضــع قدمه على أوّل درجة مــن الدرجات الضيّقة المحفورة في الصخر، والمؤدّية إلى الأسفل في دوّامة.

عندما شعر بيد الفتاة المصرية على كتفه، استدار نحوها.

قالت له: «لقد كنت رائعاً».

ابتســم لها جايســون. «وأنت أيضاً كنــت رائعة بحلّ أحجية الخشخيشة...».

قالــت وهــي تضع يدها علــى كتف ريــك: «إذاً، كنّا جميعاً رائعين!».

أجاب مبتسماً: «كانت مجرّد ضربة حظّ...».

صحّح له جايســون وهو يرفع المصبــاح: «إنّه الحظّ الجيّد! بطاقة الأركانا الكبرى رقم 10».

هكذا بدأوا هبوطهم.

كانــت الدرجات شــديدة الانحدار وغــدّارة. كانت كلّ درجة تمنحهم بالكاد مساحة كافية لوضع عقب قدم، وكان ارتفاع كلّ واحدة مختلفاً عن سابقتها، ومع كلّ خطوة، كانوا يغرقون أكثر في الظلام.

تمتم جايسون: «لكنّ الأغنية لا تذكر شيئاً عن هذا...»، وكان يتقدّمهمــا حاملاً مصباح الزيت الذي تراقصت شــعلته مثل ضوء سفينة في عاصفة.

أحــاط بهم هواء خانق وعابق برائحة الرطوبة. مزّق المصباح شــباك العنكبوت التي تدلّت مثل ستائر سميكة، واستطاعوا سماع صوت أقدام صغيرة تسرع لتختبئ في الظلام، منزعجة من أولئك الدخلاء غير المتوقّعين. لا شكّ أنّ سنوات عديدة مرّت منذ آخر مرّة وطأ فيها أحدهم هذا المكان.

قال جايسون فجأة عندما لم تعثر قدمه على درجة أخرى: «ها قد وصلنا! نحن في القاع!».

رفع المصباح الذي أصبح مغطّى بشباك العنكبوت، وأضاء أخيراً الغرفة التي لا وجود لها.

كانت جوليا تراقب كلّ شيء من النافذة. وعندما شاهدت نيستور يسقط على الأرض لم تفكّر مرّتين. هكذا هُرعت خارج غرفة الجلوس وهبطت السلّم، ثمّ اندفعت مسرعة عبر الأبواب الزجاجية للمدخل، وتوجّهت مباشرة إلى سيّارة مانفريد. أرادت إيجاد طريقة لإلهائه، ولذلك فعلت الشيء الوحيد الذي تبادر إلى ذهنها: دخلت السيّارة، ثمّ أطفأت المصابيح الأمامية والموسيقى الصاخبة، قبل أن تزحف إلى الخارج مجدّداً، وتختبئ خلف رفراف السيّارة.

صاح مانفريد من خلال المطر البارد: «آها! يبدو أنّ القطّة الصغيرة خرجت من قفصها...».

ناداها نيستور الذي كان لا يزال على الأرض: «كلّا يا جوليا! عودي إلى الداخل! أقفلي الباب ولا تدعيه يدخل!».

على بعد بضع خطوات منها، كان الباب المؤدّي إلى فيلّا آرغو مفتوحاً، لكنّ جوليا بقيت مختبئة خلف رفراف السيّارة.

صاح نيستور مجدّداً: «أغلقي الباب!».

بدأ مانفريد يتوجّه نحو الباب.

لم تتحرّك جوليا حتّى آخر لحظة، عندما رأت الرجل صاحب المعطف الواقي من المطر وهو يقترب من السيّارة ويمرّ بها مباشرة. وعندئذٍ انطلقت وجعلته يتعثّر.

شـــعر مانفريد أنّه يطير مـــن دون أن يفهم كيف حدث ذلك. منذ لحظة واحدة كان يجري، وفي اللحظة التالية أصبح يرقد على وجهـــه علـــى الأرض، والرياح تعصف به. عندما فتح عينيه، وجد نفسه يحدّق إلى بركة في وسط الحصى. وبين الحصى، تماماً مثل ســفينة صغيرة تطفو في بحر صغير، رأى المفتاح الذي أخذه من مكتب البستاني. كان قد سقط من جيب معطفه.

اندفعـــت جوليا من مخبئها وركعـــت لاختطاف المفتاح، ثمّ اســتدارت لتركض عائدة إلى المنزل. ولكن بينها وبين باب فيلّا آرغو الوحيد المفتوح، استلقى سائق أوبليفيا نيوتن.

دار ضوء المنارة في المكان ببطء.

صاح نيســتور من خلال المطــر: «جوليا! اخرجي من هناك! أسرعي!».

لم تنتظر جوليا أكثر، بل استدارت وبدأت تجري عبر المطر. استطاعت أن تسمع مانفريد وهو ينهض على قدميه ويدمدم بشي ما.

ركضت جوليا إلى أن وجدت نفسها تحدّق مباشرة إلى البحر. كانت قد وصلت إلى طرف جرف سالتون، تماماً حيث تبدأ الأدراج هبوطها.

إنّه المكان نفسه الذي كاد جايسون أن يسقط منه في الهاوية في اليوم السابق.

استدارت وركّزت نظرها لتميّز ظلّ مانفريد من خلال المطر، ثمّ حملت المفتاح فوق رأسها.

صاحت: «تعال وخذه، إذا كنت راغباً فيه إلى هذا الحدّ! تعال إلى هنا وخذه، إذا كنت تجرؤ!».

عصفت الرياح بشعرها.

في الحديقة، نظر الرجل أوّلاً إلى باب فيلّا آرغو المفتوح، ومن ثمّ إلى الفتاة. بدا أشبه بعملاق ملفوف بمعطف.

كان نيستور قد نهض هو الآخر. «جوليا، كلّا! ابتعدي من هناك!».

فكّر مانفريد للحظة، ثمّ اتّخذ قراره.

بدأ يسير نحوها قائلاً: «أعطني المفتاح».

ابتسمت له جوليا. في الواقع، كان قلبها ينبض بعنف من شدّة الخوف، لكنّ الكرة أصبحت في ملعبها الآن.

كرّر مانفريد، في اللحظة التي هزّ فيها الرعد السماء: «أعطني المفتاح... أيّتها الشقية الصغيرة».

دار ضوء المنارة حول المكان ببطء.

«إذا اقتربتَ خطوة أخرى، سألقي به في البحر!».

توقّف مانفريد على بعد ثلاث خطوات منها، وبدا مبتلّاً حتّى العظم.

قال مهدّداً: «إيّاكِ وفعل ذلك، أيّتها الصغيرة...».

أجابت جوليا وهي تلوّح بالمفتاح بين أصابعها: «إيّاك أن تقترب أنت، وإلاّ قد ينزلق من يدي...».

صاح نيستور من خلف مانفريد: «جوليا!».

قال مانفريد ساخراً: «جدّك يناديك، أيّتها الصغيرة... لماذا لا تجيبينه؟».

ردّت عليه: «لأنّني مشغولة بالتحدّث مع وغد كبير يرتدي معطفاً».

اندفع مانفريد نحوها غاضباً. وفي غمضة عين، اجتاز الخطوات الثلاثة التي تفصله عن جوليا.

كانت الفتاة تتوقّع ذلك، وفي النهاية، كانت تلك جوليا كوفينتت، بطلة الجمباز، التي لم تُهزم في سباقات العدو ومباريات أفضل لاعبة في فريق الكرة الطائرة في المدرسة بأكملها.

تحرّكت جانباً ورمت المفتاح من فوق الهاوية. وفي تلك اللحظة، مرّت كتلة مبلّلة كبيرة بجانب وجهها.

دار ضوء المنارة ببطء.

وعندمــا عبر إلى الجانــب الآخر، كان مانفريد قد اختفى في الهاوية.

الفصل 21

- الغرفة التي لا وجود لها -



أرجّح جايسون مصباح الزيت أمامه ببطء، ليلقي قوساً من الضوء في الغرفة التي لا وجود لها. كانت غرفة عميقة وضيّقة، عبارة عن مكان مظلم قديم محفور في الصخر ومغطّى بشباك العنكبوت. خفقت شعلة المصباح في الهواء الخانق، لتكشف عن صفّ من التوابيت الذهبية المصفوفة إلى حائطين، مثل حرّاس أمناء. بين صفَّي التوابيت، امتدّ ممرّ حجري ضيّق يؤدّي إلى مذبح كُدّست عليه أشياء مغطّاة بطبقة سميكة من الغبار.

بينما لمع الضوء الباهت على الوجوه المنحوتة على الأسطح الذهبية للتوابيت، تمتم جايسون: «من هؤلاء؟». كانت ملامحهم صارمة وقديمة العهد على نحو لا يصدّق، كأنّها من خارج هذا الكوكب.

همست ماروك: «هؤلاء هم المؤسّسون... أولئك الذين خرجوا من البحر لبناء بيت الحياة».

كان المؤسّسون ينظرون أمامهم بكلّ اتّجاه، جامدين وجادّين في ثيابهم الحجرية الطويلة. كانت أذرعهم مثبّتة إلى جوانبهم وأقدامهم موضوعة فوق أصداف سلاحف.

وقف الأولاد هناك من دون أن ينطقوا بكلمة، وقد أرهبهم الصمت المحيط بهم.

قال ريك بعد قليل وهو يركع على الأرض: «انظرا! لم يكذب علينا صاحب الدكّان!». عند أسفل الدرج تماماً كان ثمّة ثلاثة أشياء صغيرة مغطّاة بالغبار: سلاحف صغيرة منحوتة من العاج.

ثلاث سلاحف، تماماً كتلك التي وجدوها على القنطرة فوق الباب، في المغارة الواقعة تحت جرف سالتون.

ازدرد جايسون لعابه بصوت واضح ثمّ عاد لينظر إلى الغرفة التي لا وجود لها.

عندما قام بخطوته الأولى، شعر أنّه يسير على طبقة رقيقة من الثلج، لأنّ قدمه غرقت في بضع سنتمترات من الرمال قبل بلوغ الأرضيّة الحجرية الصلبة.

قال جايسون: «أعتقد أنّه يجدر بنا البحث بين الأغراض الموجودة على المذبح...».

لمع الضوء المنبعث من المصباح فوق الوجوه الجامدة على التوابيت.

خلفه، خطت ماروك خطوة إلى الأمام. كانت قد أخرجت تميمتها مجدّداً وأمسكتها بكلتا يديها، اللتين ابيضّتا من شدّة التوتّر.

وقف ريك في الخلف، ينظر حوله بعصبيّة.

شعر بعدم الارتياح هناك، في ذلك العالم الصامت... أحسّ تقريباً كما لو أنّه يُقلق النوم الصامت للمؤسّسين...

كانت الغرفة مليئة بالأصداء الغريبة، مثل ضربات بعيدة أو مثل صوت قطرات ماء وهي تسقط من مكان ما. شعر ريك أنّه سمع أصوات هسهسة مكتومة، لكنّه ظنّ أنّها مجرّد تخيّلات.

خطوة تلو الأخرى، تقدّم الأصدقاء الثلاثة ببطء نحو المذبح

المزدحم بالأغراض، تحت نظرات المؤسّسين الجامدة.

همس جايسون وهو يشقّ طريقه عبر شباك العنكبوت والظلام بحثاً عن شيء قد يحتوي على خارطة: «لقد أوشكنا على الوصول».

فجأة، توقّف في مكانه وسأل: «ما الأمر يا ماروك؟».

أجابت الفتاة من خلفه مباشرة: «لا شيء، لماذا؟».

«إذاً هلّا رفعتِ ذراعك عن كتفي؟ لا أستطيع السير...».

«أنا لا أضع ذراعي على كتفك...».

خفق ضوء المصباح بخفّة.

قال جايسون بصوت منخفض وببطء شديد: «إذا لم تكن تلك ذراعك... إذاً... ماذا يوجد على كتفي...؟».

«ارفع المصباح يا جايسون، لا يمكنني رؤية شيء».

من خلفهما، استدار ريك ونظر إلى صفَّي التوابيت، وللحظة، شعر كأنّه رأى شيئاً يتحرّك بالقرب من أحدها.

رفع جايسون المصباح ببطء، إلى أن سقط الضوء على كتفه الأيسر.

صاحت ماروك: «أوه، كلّا! أوه، كلّا، جايسون!».

التفت الفتى ببطء شديد.

كان على كتفه شيء أطلق هسيساً وحدّق إليه بعينين صفراوين كبيرتين بحجم جوزتين.

ثعبان.

قاوم جايسون الصراخ، وضربه بيده التي يحمل بها المصباح. فسقط الثعبان على الأرض محدثاً ضجّة مكتومة، ثمّ زحف على الرمال واختبأ في الظلال.

تنهّد جايسون قائلاً: «أفّ... كانت ضربة موفّقة!». ثمّ رفع مصباحه وألقى نظرة أفضل حوله.

عندما رأت ماروك ما يوجد هناك، أطلقت صرخة مدوّية، فتوقّف ريك الذي كان خلفهما في مكانه وقد شلّه الخوف.

كانت الثعابين في كلّ مكان. راحت تسقط من السقف، وتزحف تحت طبقة الرمال التي تغطّي الممشى، وتخرج من التوابيت. كانت تلتفّ وتتشابك وتتلوّى ويعضّ بعضها بعضاً من دون سبب واضح أثناء محاولتها التسلّل للاختباء في الظلام مجدّداً. بدا كأنّ وصول الأولاد قد أيقظها من سباتها.

قال جايسون بصوت خافت: «ريك؟ ماذا سنفعل؟».

كان السقف يمطر بمزيد من الثعابين التي تسقط على الأرض مصدرة ضجّة مكتومة.

«ريك؟».

«هسّ! أنا... أنا أفكّر...».

«هلّا فكّرتَ بسرعة أكبر؟».

تمتمت ماروك بشيء ما بصوت خافت.

«الأفاعي... صمّاء». راح ريك يحاول أن يتذكّر كلّ ما تعلمه عن هذه الزواحف. «ما يزعجها... الاهتزازات».

«إذاً... دعونا لا نتسبّب باهتزاز شيء، اتّفقنا؟».

«كذلك... أعتقد أنّها تخشى النار، وربّما الضوء أيضاً».

«حسناً عظيم. هذا تماماً ما نحتاج إلى معرفته. لدينا مصباح مضاء».

حرّك جايسون المصباح في نصف دائرة حول أقدامهم، فابتعدت كتلة الأفاعي بهسيسها، بينما صاحت ماروك مرعوبة.

قال ريك: «أعتقد أنّه من الأفضل لنا أن نخرج من هنا وبأسرع وقت ممكن. فهذه الوحوش الصغيرة قد تكون مربَكة الآن، ولكن...».

«هل تظنّ أنّها سامّة؟».

«لا أدري. قد تكون...».

أعلن جايسون فجأة: «سأقوم بمحاولة! أنا قريب جدّاً لدرجة أنّني أستطيع مدّ يدي ولمس المذبح تقريباً».

صاح ريك: «جايسون، كلّا! لا تتصرّف بجنون! علينا أن نتراجع ببطء حتّى نبلغ الدرج، ثمّ نفرّ هاربين ونحن لا نزال على قيد الحياة!».

«ولكن ريك، أنا على مسافة قصيرة من المذبح...».

صاحت ماروك: «ولكنّ الأرض مغطّاة تماماً بالثعابين السامّة!».

قال جايســـون: «ربّما كانت مجــرّد ثعابين مخيفة المظهر. لا تتحرّكا من مكانكما!».

«جايسون!».

رفع الفتى المصباح عالياً ومشى خطوتين إلى الأمام.

كان المذبح يعجّ بأغراض من شـــتّى الأنواع، جميعها مغطّاة بالتراب والغبار وشباك العنكبوت. كان ثمّة جرار مليئة بالجواهر، وتماثيل حجرية صغيرة، وأمشاط للشعر، ولفائف بردي، وصناديق خشبية...

قال جايسون في نفسه وهو يتقدّم خطوة ثالثة، فكّر يا جايسون، فكّر... من الممكن أن تكون خارطة خليج كيلمور مخبّأة في أيّ مكان في تلك الكومة.

صدر أنين عن ماروك، فاستدار جايسون وحرّك المصباح حوله بالقرب من الأرض، ثمّ عاد للتركيز على ما هو موجود أمامه.

همس مجدّداً: «فكّر يا جايسون...». وتذكّر ورقة البردي التي عثر عليها في الكوّة: ملاحظة: قرّرت وضع الخارطة في مكان آمن: الغرفة التي لا وجود لها.

لا يمكـــن أن تكون الخارطـــة موجودة هناك منذ فترة طويلة. ربّما بضع سنوات، ولكن ليس أكثر من ذلك.

مدّ جايسون يده وبدأ يلمس سطح المذبح في موضع يحتوي على مقدار أقلّ من شباك العنكبوت والغبار.

صندوق، مشـــط للشـــعر، تمثال ذهبي صغيـــر... عمّ يبحث بالضبط؟

ناداه ريك من خلفه: «جايسون! أسرِع! أنا أشعر بالأفاعي حول قدمَيّ...».

امتدّت يد جايســـون بين الغبار، ومرّت على بعض الأغراض ورفعت أغراضاً أخرى.

الخارطة. خارطة خليج كيلمور... أين هي؟ في مكان آمن...

قال جايســـون في نفسه، ربّما خبّأها الشخص الذي أحضرها إلى هذا المكان بين أقدم موجودات الغرفة، لخداع كلّ من يحاول العثور عليها. فكّر يا جايســـون. أو ربّما لا يجدر بك التفكير على الإطلاق، بل اتبع حدسك.

خفض الفتى المصباح ووضعه على الأرض خلفه.

«جايسون؟».

بعد ذلك، أغمض عينيه وبدأ يتخيّل. تخيّل نفســـه يسير هناك بنيّة إخفاء خارطة في مكان آمن. خارطة هامّة. خارطة لا ينبغي أن تعثر عليها أوبليفيا نيوتن. تخيّل أنّه اكتشف الغرفة الأكثر سرّية في بيت الحياة بأكمله. غرفة محميّة بأفاعي الصحراء السامّة.

كان قلبه ينبض بعنف ورأسه يضجّ، بحيث لم يعد يسمع شيئاً آخر.

أخذ جايســـون نفســـاً عميقاً، ثمّ قلب راحة يديه إلى الأعلى

ومدّهما تحت المذبح. تحسّس الحجر، ثمّ ضغط ببطء.

كليك.

انفصل شيء خفيف من أسفل المذبح وأصبح الآن بين يديه.

للحظة، لم ير جايسون سوى ضباب رمادي، لأنّ عينيه كانتا مغمضتين بإحكام لدرجة أنّهما سبّبتا له الألم.

عندما سحب يديه من تحت المذبح، أدرك أنّه كان يحمل إطاراً خشبياً مسطّحاً.



استدار ونظر إليه في ضوء المصباح.

كان عبارة عن مطبوعة بالحبر البنّي لخارطة. وفي قسم

مزخرف في الأسفل كتب ما يلي:

الخارطة الدقيقة الأولى والوحيدة لتلك الأرض في كورنوال المسمّاة خليج كيلمور.

وقف جايسون هناك يحدّق إليها، وقد فغر فاه دهشة. بعد ذلك نظر إلى ريك وماروك وصاح: «لقد وجدتُها! لقد وجدتها! لقد وجدنا خارطة خليج كيلمور!».

في تلك اللحظة تماماً، انطفأ ضوء المصباح.

الفصل 22
المواجهة



في ظلام الغرفة، حمل جايســـون الإطار بإحكام إلى صدره، بينمـــا صاح ريك، وبدأت ماروك تتلو بصوت عالٍ الصلوات التي كانت قبل قليل تهمس بها همساً.

كان الأولاد الثلاثة محاطين بالهسهسات والظلام.

صاح ريك: «لا تتحرّكا!»، ثمّ بدأ يفتّش حقيبته.

سألته ماروك قاطعة صلاتها للحظات: «من يتحرّك؟».

فتّش ريك بين أشـــيائه إلى أن تمكّن أخيراً من إشـــعال عود كبريت.

ظهر وجهه الخائف محاطاً بهالة من الضوء المرتعش. «علينا إضاءة المصباح مجدّداً! جايسون، أعطه لماروك، بسرعة!».

انحنى جايسون في الظلام وفتّش حوله إلى أن أمسك المصباح من قاعدته. وعندما انطفأ عود الكبريت، أشعل ريك عوداً آخر.

قال جايسون: «أما كان من الأسرع لو أعطيتني الكبريت؟».

«هيّا، أعطه لماروك!».

قام جايسون بخطوة إلى الأمام وأعطى الفتاة المصباح.

هتفت قائلة: «لقد أصبح معي!».

انطفأ عود الكبريت مجدّداً، فبحث ريك عن عود آخر واستعدّ لإشعاله. «والآن يا ماروك، تراجعي خطوة وأعطني إيّاه...».

لـــم يكـــد ينهي جملته حتّى ســـقط ثعبان علـــى رأس ماروك

مباشـــرة. فأطلقت صرخـــة مدوّية، واســـتعملت المصباح لإبعاد المخلوق الزاحف عنها.

تحطّم المصباح على تابوت أحد المؤسّسين، وبدأت ماروك تجري وهي تصرخ باتّجاه السلّم، وتُسقط كلّ ما يظهر في طريقها، بما في ذلك ريك.

صاح جايسون، وهو يندفع نحو المخرج هو نفسه: «اهربا!».

صعد الأولاد الثلاثة السلّم كالصاروخ وهم يصيحون من دون توقّف، وخرجوا سالمين معافين من السرداب إلى الحديقة.

لكـــن بمجـــرّد أن أصبحوا في الخـــارج، لم تتح لهم الفرصة للتعبير عن امتنانهم لخروجهم أحياء، لأنّهم وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه مع شابّ مصري يحمل خنجراً لامعاً بيده.

قال الشـــابّ لمـــاروك وريك: «أنصحكما بـــأن تكونا ولدين مطيعَيـــن...» ثـــمّ أجبرهما على الجلوس جنباً إلى جنب وظهرهما إلى البركة.

أمسك بجايسون، الذي كان يحاول التسلّل عائداً إلى الأسفل، ودفعه إلى جانب ماروك وريك.

تردّد صوت أوبليفيا نيوتن من خلف الشابّ: «حسناً، حسناً... لقد عاد المستكشفون الصغار الأبطال من مهمّتهم!».

خلفها، كانت السماء مصبوغة باللون الأحمر.

توجّهت المرأة مباشرة إلى جايسون، الذي حاول قدر استطاعته إخفاء الخارطة الثمينة خلف ظهره. «من لدينا هنا؟! الشابّ جايسون كوفيننت!».

قال، محاولاً من دون جدوى التراجع إلى حافة البركة: «ماذا تريدين؟».

انحنت أوبليفيا نحو الصبيّ قائلة: «هل تعني حقّاً أنّك لم تفهم بعد؟».

أشارت إلى الشابّ المصري ليأخذ الخارطة.

صاح جايسون، وهو يكافح بكلّ قوّته: «كلّا!».

في تلك اللحظة، أصيب بضربة عنيفة على رأسه وسقط أرضاً.

صاح ريك: «أيّها الجبان!» لكنّه فوجئ بركلة ألقت به ليتلوّى على الأرض.

ركعت ماروك لمساعدة صديقيها، ثمّ صاحت في وجه أوبليفيا بحقد: «لصّة!».

انتزعت المرأة الآتية من خليج كيلمور الإطار من بين يدي الشابّ ونظرت ساخرة إلى ماروك.

«ومن تكونين بقصّة الشعر السخيفة هذه؟ هل أنت الشهيرة جوليا؟».

«أنا ماروك، ابنة رئيس الكتبة المعظّم!».

«أوه، يا إلهي! المعذرة!». قالت أوبليفيا نيوتن ذلك بسخرية، مركّزة كلّ اهتمامها على ما تحمله بين يديها.

كسرت الإطار إلى نصفين، ثمّ أخرجت الخارطة وفردتها أمامها. «آه، أجل، إنّها أنت حقّاً... لقد بحثت عنك طويلاً، يا خارطة خليج كيلمور! كم أنتِ فريدة وثمينة... وقد أصبحتِ ملكي أخيراً!».

كرّرت ماروك: «أنتِ لصّة!».

أمرت أوبليفيا الشابّ المصري، من دون أن ترفع عينيها عن الورقة التي تحملها بين يديها: «أغرقها، وأطعم الولدين الآخرين للثعابين في الأسفل».

لفّت أوبليفيا نيوتن الخارطة ودسّتها في قميصها.

أخرج الشابّ خنجره وتوجّه نحو ماروك مهدّداً. كان جايسون مستلقياً على الأرض، غائباً عن الوعي، بينما كان ريك يكافح للنهوض مجدّداً على قدميه بعد الركلة العنيفة التي تلقّاها.

نادى صوت آمر: «توقّف!».

فجأة، خرج المالك المسنّ لدكّان الخرائط الضائعة من زمان من الظلال.

دمدم قائلاً وهو يمشي بصعوبة: «أنت تذكرين صفقتنا، هاع! الخارطة لك، والأولاد لي».

«افعل بهم ما تشاء أيّها المسنّ. لقد حان الوقت لرحيلي».

«هـاه، هـاع! هذا خبر رائـع! رائع حقّـاً، وإذا أردتِ معرفة الحقيقـة، نتمنّـى أنا وتالوس من كلّ قلبينـا ألّا نراكِ مجدّداً على الإطلاق. أغرقها، هاع!». التفت الرجل نحو مسـاعده وهو يرمقه شزراً. «كيف تجرؤ على التفكير في تنفيذ أمر كهذا؟ إنّهم أطفال... هـاع! القاعـدة رقم 32: لا تولِ أيّ اهتمـام للأطفال. ألم أعلّمك ذلك؟».

انفجرت أوبليفيا نيوتن ضاحكة.

«ولا تفرحـي كثيـراً أيّتهـا المرأة. هاع! لقد سـمحت لك بالاحتفاظ بتلك الخارطة لأنّ وعدي ما زال يُحسـب له حساب في هذه المدينة». مدّ الرجل المسـنّ قدمه المتورّمة لوكز جسـد طويل اللسان الملقى على الأرض. «هاع! ولأنّ هذا الولد ما زال حيّاً».

انحنى بعد ذلك، ونظر مباشرة إلى عينَي المرأة بنظرات شرسة قائـلاً لهـا: «والآن اخرجي من هنا قبل أن أغيّر رأيي وأقرّر إعطاء تالوس وجبته المميّزة التي يطالب بها!».

أجابت أوبليفيا: «اطلب من الشابّ إخراجي من هنا، ولن تراني مجدّداً».

لوّح مالك دكّان الخرائط الضائعة من زمان بيده، فاصطحبها الشابّ لتغادر المكان.

انحنى صاحب الدكّان فوق ريك وسأله: «كيف حالك يا قلب الصخر؟».

قحّ ريك بضع مرّات، قبل أن يتمكّن أخيراً من الكلام. «لماذا تركتها تفلت؟».

«لقــد أعطيتها وعداً، هاع! كما أنّهــا دفعت لي المال للعثور على الخارطة».

في تلك الأثناء، كانت ماروك قد حملت بعض الماء من البركة بيديها وبدأت ترشّه على وجه جايسون.

«لقد تلقّى صديقك ضربة قويّة يا قلب الصخر، ولكن...».

عندما سقط الماء على وجه جايسون، استيقظ فجأة وهو يقحّ.

«هاع! إنّه سالم معافى».

سأل جايسون وهو يفرك عينيه: أين ذهبا؟».

أجابت ماروك: «لقد فرّا بالخارطة...».

في اللحظة التي رأى فيها جايســون صاحب الدكّان، حملق بعينيه وهتف متســائلاً: «ماذا تفعل هنــا؟ آه... فهمت... أنت من ساعد أوبليفيا نيوتن لتسرق منّا الخارطة!».

رفع الرجل المسنّ يديه مدافعاً عن نفسه.

«هاع، لم تؤثّر تلك الضربة على لســانك إطلاقاً كما يبدو... أنــا لم أســرق منك الخارطة، بــل دُفع لي المال لكي أعثر عليها. وكالعــادة، تمكّنتُ من ذلك. هاه، هاع...»، ثمّ تراجع إلى الخلف

مترنّحاً وهو يصرّ على أسنانه بألم. «هاع! عندما تغيب الشمس، تؤلمني هاتان الساقان أكثر، صدّقوني!».

توجّه الرجل المسنّ نحو الغطاء الذي كان يخفي السلّم، وكان لا يزال ملقى على الأرض.

قال وهو يهزّ برأسه: «أحسنتم أيّها الأولاد... لقد فعلتم ما لم أستطع تخيّله إطلاقاً. تحت نافورة حتحور! لا أصدّق ذلك. هاه، هاع!».

بعد أن عبرت أوبليفيا نيوتن الأسوار، صرفت دليلها وراحت تمشي بسرعة. توقّفت عدّة مرّات لتنظر خلفها، لكن لا يبدو أنّ أحداً يتبعها. مع ذلك، ومن باب الحرص، استدارت عند المنعطف خمس مرّات على الأقلّ، وتوقّفت من حين إلى آخر لتنظر من خلف كتفها. عندما اقتنعت أخيراً أنّ الشابّ انصرف فعلاً، قرّرت العودة باتّجاه حيّ الأطبّاء.

كإجراء احتياطي أخير، توقّفت عند الزاوية المقابلة للمكان الذي تقصده، وانتظرت وهي تعدّ الثواني. كانت شديدة الحماسة للعودة إلى البيت وتفحّص خارطة خليج كيلمور التي تحملها جيّداً بيدها.

لكن على الرغم من رغبتها الكبيرة في العودة سريعاً، أدركت أنّه لا يجدر بها المجازفة بأن يراها أحد.

أخيــراً، قرّرت أنّهــا انتظرت بما فيــه الكفاية. فخرجت من مخبئها، وعبرت الشارع، ثمّ توجّهت نحو مبنى مجهول مكوّن من طابقين بدا أنّه شهد أيّاماً أفضل.

بعد نظرة أخيرة يساراً ويميناً، تسلّلت إلى الداخل.

هنــاك، كان الصمــت يعــمّ المكان. فالمبنــى الذي كان في الماضــي على الأرجح مكتباً لتحصيل الضرائب، هو الآن مهجور منذ مدّة من الزمن. ونظراً إلى سمعته السيّئة، لا أحد يقصده. فما من شيء أفضل من فكرة الضرائب لإبعاد الناس.

فــي قبو المبنى، خلف كومة من الجــرار الفخّارية المحطّمة وقطع قصب البردي، كان ثمّة باب خشــبي. وكان يوليســيس مور قد حاول إغلاق هذا الباب وإخفاءه أيضاً.

همست أوبليفيا وهي تمسك بالخارطة: «والآن، سأتمكّن من العثور عليها جميعاً...».

ركلت جانباً طاولة في طريقها وتوجّهت نحو الباب.

بعــد ذلك، أخرجت المفتاح المزوّد بقبضة على شــكل هرّ، ومدّت يدها إلى القفل.

لكنّها لم تكن مضطرّة لاستعماله، لأنّها وجدت الباب مفتوحاً.

أشـــارت وهـــي تســـجّل الملاحظة في ذهنهـــا: «إذاً، المفتاح ضروريّ فقط من الجانب الآخر...».

كان تفصيلاً مثيراً للاهتمام، لكنّه خطير جدّاً أيضاً.

فماذا سيحدث لو أنّ أحدهم عثر على الباب؟

قرّرت التفكير في ذلك لاحقاً. دفعت الباب الخشبي وفتحته، ثمّ عبرت العتبة ووجدت نفسها في منزل كليوباترا بيغلز.

تفرّقت القطط وهي تفرّ بجنون. أمّا أوبليفيا، فمشت بينها من دون أن تنظر إلى الأسفل.

«مانفريد؟».

صدر صوت عن ساعتها التي بدأت تعمل مجدّداً.

كانـــت كليوباتـــرا بيغلز لا تـــزال نائمة علـــى الأريكة، بفمها المفتوح، بينمت تكوّر هرّها قيصر تحت ذراعها.

نظـــرت أوبليفيا من النافذة. كان المطر قد توقّف تقريباً، لكنّ الســـماء لا تـــزال داكنة وملبّدة بالغيـــوم، وكانت المزاريب طافحة بالماء.

نادت مجدّداً وهي تتوجّه إلى باب المنزل: «مانفريد!».

في الخارج، كانت السيّارة قد اختفت.

«اللعنة عليك! إلى أين ذهبت؟».

كانت أوبليفيا على وشـــك أن تصاب بإحدى نوبات جنونها المعتادة عندما تذكّرت الخارطة التي كانت لا تزال معها.

فتحتها، وفي أثناء ذلك، بدأت تضحك.

ضحكت بصوت عالٍ...

من يأبه إذا كان سائقها الموثوق قد اختفى؟

اســتدارت إلى غرفة الجلوس للمرّة الأخيرة، ثمّ عادت لتلمّ معطف الفراء عن الأرض، وتنتعل شبشب الآنسة بيغلز الصوفي.

وبينما هي تخرج، أطفأت الضوء.

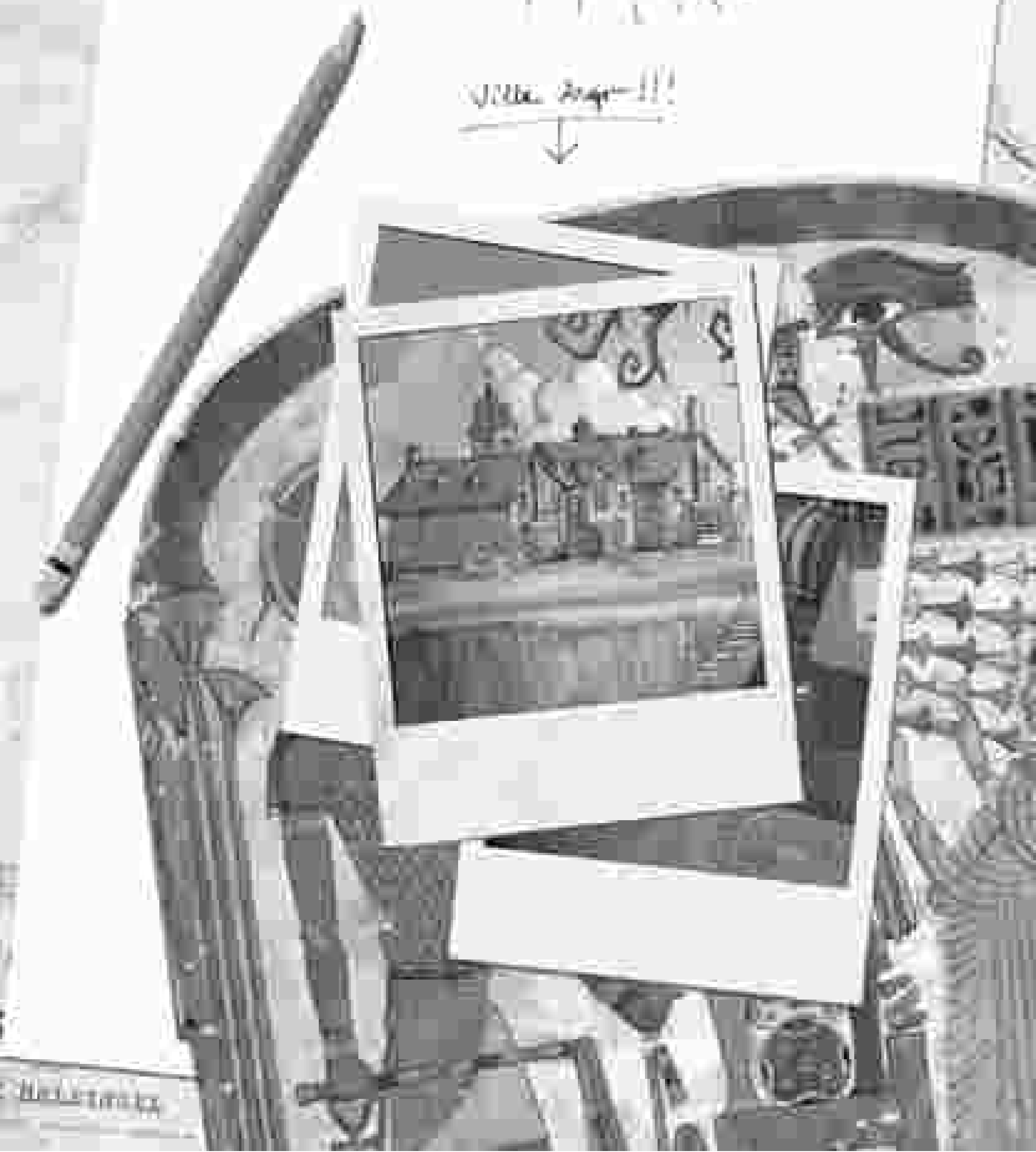
«ليلة سعيدة، يا آنسة بيغلز...».

خرجت إلى الشارع، وراحت تمشي على الرصيف المبتلّ.

على الرغم من المطر الخفيف والشبشب الكبير، كانت أوبليفيا نيوتن بمزاج رائع.

الفصل 23

- العودة إلى البيت -



انتظر ريك وجايسون وماروك انصراف صاحب الدكّان، ثمّ عادوا إلى بيت الزوّار. كانت حاشية الفرعون تتجوّل في الحديقة ولم يلاحظ أحد وجود الأولاد على الإطلاق.

ألقى ريك وجايسون نظرة أخيرة على أسوار بيت الحياة التي كانت تعلوها الآن سماء مظلمة. بعد ذلك، عادوا جميعاً ونزلوا إلى المخازن تحت الأرض.

عندما أصبحوا هناك، تبعوا الإشارات التي تركها ريك خلفه، ووجدوا طريقهم إلى الغرفة التي التقيا فيها بماروك.

قام الولدان بإزاحة اللوح جانباً، وبدآ بفتح الفجوة في جدار الطوب.

لم يقل أحد منهم شيئاً لمدّة من الوقت، وقد أربكهما الوداع الوشيك.

عندما فُتح الممرّ ثانية عبر الجدار، قالت ماروك أخيراً: «أعتقد... أنّه علينا أن نودّع بعضنا هنا».

حكّ جايسون رأسه، الذي كان لا يزال يؤلمه إثر الضربة التي تلقّاها.

حدّق ريك إلى الأرض بخجل. «أعتقد أنّك محقّة...».

«حسناً، إذاً...» نزعت الفتاة المصرية تميمتها من حول عنقها، وقدّمتها وهي تبتسم لريك وجايسون. «لا أدري لمن منكما يجب أن أعطيها بالضبط، ولكن... أودّ أن تأخذاها معكما».

انتهــى الأمر بالتميمة بين يدي جايســون، مع أنّه كان متردّداً جدّاً في قبول الهدية غير المتوقّعة. قال وهو يتذكّر كم اســتعملتها الفتاة في صلواتها: «ماروك، كلّا... إنّها مهمّة جدّاً بالنسبة إليك».

رفعت ماروك إصبعها إلى شــفتيها وقالت: «هذه هديّة لكما. ستبعد عنكما عين حورس الشرّ وتحميكما من المحن، تماماً كما حمتنا في الغرفة التي لا وجود لها».

حاول جايسون أن يصرّ عليها، لكنّ ماروك كانت مصمّمة على قرارها. «خذاها معكما أينما ذهبتما».

عبــس ريــك قليلاً وهو يفكّر، ثمّ وضع حزمته على الأرض. قال وهو يخرج آخر أعواد الكبريت المتبقّية: «كلّ هديّة تســتحقّ هديّة بالمقابل... هذا مجرّد تذكار... ولتدهشي به أصدقاءك أيضاً. بالطبــع، هذه الأعواد لا تضاهي بقيمتها قلادتك، ولكن... ولكن ليس لدينا شيء آخر نعطيك إيّاه باستثناء بضعة أمتار من الحبال».

قبلــت ماروك أعواد الكبريت كما لو كانت أغلى هديّة تلقّتها في حياتها.

بعد ذلك وقف الأصدقاء الثلاثة بصمت هناك لبعض الوقت، وهم يتذكّرون كلّ ما حدث معهم في هذا اليوم المدهش.

سألت ماروك: «هل سنلتقي ثانية؟».

أجاب جايسون: «وهل تشكّين في ذلك!».

ابتسم ريك. «سنعود حتماً».

ثمّ احتضنوا بعضهم جميعاً.

قالت ماروك بحزن: «أنا آسفة بشأن الخارطة...».

«لا تقلقي».

«سنستعيدها بكلّ تأكيد».

أفلتوا بعضهم ثمّ بحثوا عن كلمات وداع أخيرة.

«اذهبا إذاً! لا شكّ أنّ أختك بانتظارك يا جايسون... وأنت يا ريك، حاول ألّا تصغي إليه كثيراً، اتّفقنا؟».

«اعتمدي عليّ في ذلك يا ماروك. وأنت كوني حذرة وحاولي حماية هذا المكان، إن استطعت».

قالت ماروك مشجّعة: «هيّا، مع السلامة... قبل أن أقرّر اللحاق بكما عبر ذلك الباب».

تسلّق ريك وجايسون الفجوة وأغلقاها خلفهما، وسمعا ماروك وهي تفعل الشيء نفسه من الجانب الآخر. عندما انتهوا، طرقوا للمرّة الأخيرة على أحجار الطوب لوداع بعضهم.

هبط الفتَيان السلّم، ثمّ انعطفا عند الزاوية، ووصلا إلى الباب الذي بدأ عنده كلّ شيء.

قال ريك: «ها قد وصلنا».

حدّق جايسون إلى الباب، ثمّ قال: «هل تعرف ما الذي يغضبني حقّاً؟».

«ماذا؟».

«أنّنا بعدما تكبّدنا كلّ هذا العناء، ما زلنا لا نعرف سبب أهمّية هذه الخارطة. كان اسم خليج كيلمور مكتوباً عليها، وكانت مليئة بالأسـماء الغريبة... لكنّني ما زلت لا أفهم ما الهدف من إخفائها هناك. والمؤسف أنّنا كنّا على وشك أن نكتشف الجواب!».

«فـي الواقـع، أعتقد أنّ الحظّ قـد حالفنا كثيراً، مع كلّ تلك الثعابين...».

أومأ جايسون برأسه موافقاً.

شـعر الاثنـان كأنّهما بيدقان في لعبة مـا زالت قواعدها غير مفهومة بالنسبة إليهما.

قال جايسون، وهو يضع راحة يده على الباب السحري: «اللعبة مستمرّة. هذا إذا أعادنا الباب إلى فيلّا آرغو...».

قال ريك: «أجل، اللعبة مستمرّة».

ثمّ أخذا نفساً عميقاً وعبرا العتبة.

قاد نيستور جوليا بعيداً عن الهاوية.

قال لها: «دعينا ندخل...».

«هل آذاك؟».

هزّ البستاني رأسه نافياً. «كلّا، بل سبّب لي بعض الكدمات وحسب. ماذا عنك؟».

«أنا خائفة قليلاً وحسب».

«لا بأس إذاً».

«هل تعتقد أنّه... مات؟» سألته جوليا ذلك بصوت خافت، وهي تنظر إلى البحر.

سلّطت المنارة ضوءها عليهما عبر المطر الخفيف واحداً تلو الآخر.

كرّرت جوليا سؤالها: «هل تعتقد أنّه مات؟ الهاوية عميقة جدّاً...».

عبس نيستور.

أصرّت الفتاة: «هل تعتقد أنّني أخطأت في ذلك؟ هل أنا مذنبة؟».

لم يجبها نيستور، بل مشى نحو سيّارة مانفريد وفتح الباب.

نادته جوليا وهي تقف عند باب المنزل: «نيستور؟ قل شيئاً!». كانت مبتلّة حتّى العظم وترتجف. «قل شيئاً!».

«لا تقلقي. لم يمت... فالناس أمثاله كالقطط، لا يموتون بسهولة».

جلس وراء عجلة القيادة.

سألته جوليا: «ماذا تفعل الآن؟».

«أنا أُخرج هذه من هنا».

عــادت جوليــا إلى الداخل، وهي ترتجف مثل ورقة شــجر. تهاوت على كرســيّ في غرفة العشــاء، ثمّ أبعدت ســاقيها جانباً وتكوّرت بين ذراعَي الكرسي.

استطاعت سماع نيستور وهو يشغّل محرّك سيّارة مانفريد، ثمّ يقودها بعيداً.

عندما فتحت عينيها مجدّداً، كان البستاني واقفاً أمامها يحدّق إليها.

سألها: «كيف حالك؟».

حدّقت إليه جوليا. «أين وضعت السيّارة؟».

أجابها نيستور بجدّيته المعتادة: «ألقيتها في الهاوية».

لم تستطع جوليا إبقاء عينيها مفتوحتين لمدّة أطول، فقد كانت منهكة، منهكة ومستنزفة بشكل غريب، على الرغم من المطر الذي بلّلها حتّى العظم.

همست متسائلة: «لن نخبر أحداً، أليس كذلك؟».

«كلّا، لن نخبر أحداً».

أومأت جوليا برأســها موافقة. «حســناً. ليس علينا إذاً سوى انتظار عودة ريك وشــقيقي إلى البيت... لأنّهما ســيعودان، أليس كذلك؟».

«بالطبع، سيعودان حتماً».

قالت جوليا شــيئاً آخر، ثمّ استغرقت في النوم. شعرت فجأة أنّها خفيفة، كما لو أنّ أحدهم يحملها. ثمّ أحسّت أنّ أحدهم يصعد بها السلّم قبل أن تحتضنها الملاءات والبطّانيات الثقيلة بدفء.

ثقيلة، دافئة، وسميكة، تماماً كالنعاس.

بــدأت تحلم، وفي حلمها، ســمعت الباب الســحري يُفتح وشقيقها يصيح: «لقد عدنا!».

ثمّ حلمت أنّها ســمعت صوت ريك، وصوت نيســتور أيضاً. وســمعت خطوات تصعد الدرج. ومع أنّها لم تســتطع أن تفتح عينيها، إلّا أنّها أدركت أنّ العاصفة في الخارج قد انتهت.

الفصل 24

- نهاية العاصفة -



عندمــا حلّ الفجر، كانت العاصفة التي احتدمت فوق خليج كيلمور قد هدأت أخيراً. فقد تفرّقت الغيوم، وسمحت بمرور أولى أشعّة الشمس. راحت طيور النورس تجوب سطح البحر بحثاً عن أسماك، بينما تدافعت تحتها أمواج لطيفة.

كان المــوج العاتــي قد جرف إلى الشــاطئ أعشــاباً بحرية، وأصدافاً، وجذوع أشــجار طافية، فضلاً عن قطع قديمة من شباك الصيــد، وغيــر ذلك من الحطام والمقذوفات التي ســيتعيّن على الصيّادين إزالتها قبل أن يتمكّنوا من الإبحار مجدّداً. كان ثمّة جذع شــجرة على بعد بضعة أمتار، وشــراع قديم ممزّق، من يدري من أين انتزعته العاصفة.

فوق الرمال، استلقى رجل على وجهه بلا حراك. كان يرتدي ملابس داكنة ومعطفاً واقياً من المطر، فيما راحت الأمواج الخفيفة تدغدغ قدميه، وكانت إحداهما حافية.

طــارت بعض طيور النورس بجانبــه، بفضول، على أمل أن يكون سمكة كبيرة قذفها البحر لتلتهمها قريباً.

فجأة بدأ الرجل يبصق.

حرّك ذراعه، ثمّ تتالت من فمه كلمات غير مفهومة.

أخيراً جلس فأجفلت طيور النورس وطارت بعيداً. راح يبصق ويقحّ لإخراج الماء.

عندما هدأ، حاول تحريك إحدى ساقيه، ومن ثمّ الأخرى، ثمّ

تحسّـــس ذراعيه وأضلاعه. كان كلّ ما فيه يؤلمه، لكن لا يبدو أنّه يعاني من أيّ كسور.

أغمض عينيه، ثمّ فتحهما مجدّداً.

كانت يده اليمنى دامية وتؤلمه. يبدو أنّ شيئاً ما علق بها. فقد كانت أصابعه متصلّبة بحيث استعمل يده الأخرى لفتحها.

أصيب بنوبة أخرى من السعال، ثمّ ابتسم.

كان مانفريد ما زال يحمل مفتاحاً قديماً بيده، مفتاحاً مقبضه على شكل أسد.